شخصيات مجمعية

كلمات فى استقبال الأعضاء الجدد

كلمات فى استقبال الأعضاء الجدد

الزميل الجديد الأستاذ محمد توفيق دياب

للأستاذ الدكتور طه حسين عضو المجمع

سيدى الزميل العزيز توفيق دياب :

أحمد إليك الله على أن وصلت إلينا سالما بعد رحلة طويلة شاقة ، وسفر غير قاصد ، فى طريق قد بثت فيه عقاب أى عقاب ! كيف وقد اختارك المجمع لعضويته فى أبريل الماضى ، ولم يأذن لك آذننا بالوصول إلينا إلا فى قبراير الماضى ؛ ذلك لأن مفاتيح دارنا هذه ليست إلينا ، وإنما هى إلى وزراء المعارف يستأذنون فى استعمالها بمجلس الوزراء ، ثم يأذنون للأعضاء الجدد بالوصول إلى زملائهم الذين سبقوهم إلى هذه الدار .

ووزراء المعارف — كما تعلم — يختلفون فى الطباع والأمزجة . فيهم الذين يؤثرون الأناة والمهل . وفيهم الذين يؤثرون السرعة والعجل . فقد أبطأ عليك بعضهم ، وأسرع بك بعضهم . والشكر لهم جميعا على ما أبطأوا وما أسرعوا . ولكنى أحب أن أخص بالشكر هذا الوزير الذى أسرع بك إلينا . وكأنه أحس شوقنا إلى لقائك ، وطول وقوفك ببابنا فرحمك وأشفق علينا . وجمع بين الذين فرقت بينهم الأيام ، فأطالت التفريق . فله منى ومن المجمع على هذا العمل الجميل شكر خاص . ومع ذلك فأحسبك أقربنا دارا إلى هذا المجمع ، فانظر إلى قرب الدار وبعد المزار ، واذكر قول أبى العلاء :

فيادارهما بالخيف إن مزارهما

قريب ، ولكن دون ذلك أهوال !

وما أريد أن أطيل فى تفصيل تلك الأهوال . فقد انجلت غمرتها — والحمد لله — ولكنى أذكر دائما أن كل المصاعب إلى تذليل ، وكل السحب إلى انقشاع . وكما كان القدماء يقولون : «الغمرات ثم ينجلين» .

وفيما بينى وبينك أيها الزميل العزيز لست آسفا على طول وقوفك ببابنا . فقد عرفتك منذ عرفتك ، أى منذ زمن بعيد جدا ، متمردا عصيا أبيا . لا تحب الخضوع للنظم ، ولا الطاعة للذين يفرضونها عليك . فلا أقل من أن يصيبك فى ذلك بعض الشطط ، ولا أقل من أن تلقى على

---

(١) ألقيت هذه الكلمة فى الجلسة العلنية التى عقدها المجمع فى ٨ من مايو ١٩٥٤ لاستقبال الأستاذين محمد توفيق دياب وحامد عبد القادر بمناسبة تعيينهما عضوين عاملين بالمجمع .

إبائك وعصيانك شيئا من عقاب . فاحتسب ما أصابك من طول الوقوف جزاء لما أسرفت فيه من التمرد والعصيان . وإذا ذكرت التمرد والعصيان ، فإنما أذكرهما وأنا ألحظك فى سنيك الأولى، ثم حين كنت صبيا تختلف إلى الكتاب. ثم حين اختلفت بعد ذلك إلى المدرسة الابتدائية فى حى من أحياء القاهرة . فكنت دائما تلميذا سىء السيرة فى فصلك ومدرستك . لا تحب نظام المدرسة . ولا تحب أمر الأستاذ والناظر ، ولا تحب الكتب المقررة ، وإنما تتبع هواك ، وتعمل كما تريد أنت ،لا كما تريد لك نظم التربية و « البيداجوجيا » .

والعجيب أنك على ذلك استطعت أن تخلص من المدرسة الابتدائية . ولكنك لم تستطع أن تستقر فى المدرسة الثانوية التى التحقت بها . فما زلت تعبث وتلهو ، ولكنه عبث جاد ، ولهو صارم، تقرأ فى غير ما يطلب إليك أن تقرأ فيه ، وتسمع لغير ما ينبغى أن تسمع له ، وتطيع نظما أخرى لا تأتيك من المدرسة، وإنما تأتيك من نفسك الجامحة ،وقلبك هذا العصى الذى لا يحب الطاعة ولا يرضاها .

وقد اضطررت إلى أن تترك المدرسة الحكومية، وخيل إليك — فيما يظهر — أن المدارس الحرة أجدر أن تسايرك فى عبثك هذا ، فاختلفت إلى مدرسة حرة . ولكن نظامك فيها لم يكن نظاما ، وطاعتك للمعلمين والنظار لم تكن طاعة. واضطرب عليك الأمر ، وأشفقت عليك الأسرة ، واضطرت إلى أن تنقلك من القاهرة إلى الإسكندرية لعلك تخضع فى هذه البيئة للنظم؛ فتفرغ من الدراسة ، فتنال الشهادة الثانوية آخر الأمر .

وقد انتقلت إلى الاسكندرية بارما ضيقا؛ ولكن الذين نقلوك إليها لم يلبثوا أن عرفوا أنهم لم يصنعوا شيئا ، فقد كنت فى المدرسة الجديدة كما كنت فى المدرستين القديمتين : عصيا أبيا متمردا ، تؤثر ما تريد على ما يراد لك . وقد تخلفت آخر الأمر عن المدرسة جامحا متبعا هواك ، مخالفا النظم ، ومخالفا رأى أسرتك . وأبيت إلا أن تدرس على هواك أنت لا هوى وزارة المعارف . والغريب أن هواك فى هذه المرة قد كان موفقا كل التوفيق ؛ فقد أتيح لك أن تختطف الشهادة الثانوية فى سرعة سريعة ، وكنت فى أوائل الناجحين .

ثم أردت أن تطلب العلم حيث تحب أنت ، لا حيث يحب لك أهلك وذووك . فرحلت إلى بلاد الإنجليز. وهناك لم تحفل بالنظم الجامعية البريطانية كما لم تحفل بالنظم التعليمية المصرية . فدرست فى بلاد الإنجليز على هواك كما درست فى مصر على هواك أيضا . وليس لهذا كله معنى إلا أنك لم تكن تلميذا طائعا . إنما كنت تلميذا من النوع الذى ينصرف عنه المعلمون والنظار وأساتذة الجامعات ومديروها .

درست فى بريطانيا العظمى كما شئت أنت . والغريب أنك أحسنت الدرس ، وبلغت من العلم ما أحببت ، أو بعض ما أحببت ، فالذى أعرفه أن حاجتك إلى المعرفة لا تنقضى .

ولكنك لم تعد من بلاد الإنجليز بإجازة معينة . ولكنك عدت منها بشيء غريب قلما يعود به الطلاب الذين يرسلون إلى الخارج . عدت وفى نفسك ميل إلى هذه النزعات ، نزعات التصوف : التصوف الذى يخرج الناس عن أطوارهم أحيانا . ويدفعهم إلى مثل عليا قلما ترضى عنها الجماعات التى تعمل لحياتها اليومية ، فكنت دائما طموحا إلى الخير ، مسرعا إليه ماوسع جهدك الإسراع إليه . وكنت دائما حريصا على أن تدعو الناس إلى ما تحب لنفسك ، ولم يكن عقلك يستقر فى رأسك إلا أن تدعو إلى هذا الذى تحبه ، ولم يكن لسانك يحب الاستقرار فى فمك . وإنما كنت دائما متنقلا برأيك تذيعه هنا وهناك .

ثم أبيت إلا أن تفرض رأيك واندفاعاتك هذه التصوفية على الناس . فنظمت لنفسك ألوانا من المحاضرات . لم تلبث أن عنى بها الناس واحتفلوا لها أشد الاحتفال .

وكانت محاضراتك تشبه أن تكون موسما عقليا فى تلك الأوقات التى كان المصريون ظماء فيها إلى المعرفة ، وظماء فيها إلى الأدب وظماء فيها بنوع خاص إلى هذه الفصاحة التى تخرجهم عن حياتهم الكادحة الجادة ، وترفعهم إلى أشياء من هذه المثل العليا يطمحون إليها ولا يكادون يحققونها .

كنت تلقى المحاضرات فى فصول الشتاء عادة — إن صدقتنى الذاكرة — وكنت تلقيها حيث يتاح لك إلقاؤها . كنت تلقيها فى ملاعب التمثيل . وكانت الجماهير تزدحم على محاضراتك كما تزدحم على الأشياء الخطيرة النفيسة التى يسرع إليها الناس ، متهالكين عليها حراصا على شهودها أشد الحرص .

ثم أنشئت الجامعة المصرية القديمة .

وأحس المشرفون على هذه الجامعة أنه قد أصبح لك شأن أى شأن ! وأن الناس يسمعون لك ويسرعون إليك ويتحدثون عنك ، فيطيلون الحديث . وشهد بعض المشرفين على الجامعة شيئا من محاضراتك ، فأرادوك على أن تحاضر فى هذه الجامعة ، وقد فعلت — فيما أذكر — ولم أكن أنا فى مصر فى تلك الأيام .

ثم أنشئت الصحف الحزبية فى العصر الجديد بعد الثورة الأولى فى سنة ١٩١٩ واشتغلت فى صحيفة « السياسة » التى كان الأحرار الدستوريون يصدرونها فى ذلك الوقت .

أيها الزميل :

كنا نعمل معا فى السياسة وكان زميلنا « هيكل » هو رئيس التحرير . فى تلك الأيام كنا شبابا . وكنا متحمسين . وكانت حماستنا ناراً تتأجج فى الصدور والرءوس . وكنا مؤمنين بحق مصر فى الاستقلال . وكنا مؤمنين بحق مصر فى النظام الدقيق الذى يوصلها إلى الاستقلال . وكنا خصوما أى خصوم لسعد زغلول وللوفد . وكانت أيامنا ولياليا جهاداً فى خصومة سعد والوفد ، ولم يكن عدد من « السياسة » يصدر إلا وفيه حملة عنيفة ، يشترك فيها ثلاثتنا . ويشترك فيها معنا أصدقاء كرام آخرون . وكنا نكلف الوفد وسعدا من أمرهما شططا .

كانوا يضيقون بنا فى النهار وكانت حملاتنا تؤرق نومهم فى الليل ، فكانوا يقدموننا إلى القضاء .

أتذكر يوم قدمت إلى القضـــاء وقدمت أنا وهيكل وغيرنا معك إلى القضاء ؛ لأنك شهدت البرلمان فأخرجت منه ، فكتبت يومها ما كتبت !

تلك أيام خلت . وكانت أياما رائعة حقا لأننا كنا نصدر فيها عن نفوس صادقة وقلوب مؤمنة بإخلاص لا حد له بحرية هذا البلد واعتزازه بحريته وكرامته .

أتذكر يوم قدمنا إلى المحكمة ويوم أخذ المحامون ـ الذين كانوا يدافعون عن الوفد وعن سعد زغلول ـ يقرءون بعض مقالاتنا ليثبتوا للمحكمة أننا معتدون على سعد وأصحابه ؟

أتذكر تلك اللحظة التى قرئت فيها بعض تلك المواد ، فلم يملك الجمهور الوفدى إلا أن يصفق ويهتف واضطرت المحكمة أن ترفع الجلسة حتى تعرف الأمة كيف تحترم مجالس القضاء ؟

فى تلك الأيام كنا نكتب وكنا نثير قراءنا ، وكنا نناقش خصومنا فى الصحافة وكنا نبلغ من مناقشتنا ما نريد ، وكنا نستطيع أن نفرض قراءة صحيفتنا رغم ما كان يصدر إلى الجماهير من الإعراض عن تلك الصحيفة .

ثم تطورت السياسة المصرية ، وعصف بالحياة النيابية ، وكانت دكتاتورية ما أحسبك نسيتها . فى تلك الأيام كنت موظفا فى الجامعة المصرية الحكومية فى إدارتها لا فى تعليمها ، لأن عبثك فى أيام الصبا والشباب ، وإعراضك عن الدرجات الجامعية حالا بينك وبين التعليم فى الجامعة الحكومية .

أتذكر مقالك ذاك الذى كتبته تهاجم به حزبا هو الذى كنت تعمل محررا فى صحيفته ، لأنه وقف الدستور وغير الحياة النيابية ودفع مصر إلى غير ما كنت تحب .

أتذكر ما كان من أعقاب ذلك المقال يوم دعيت للتحقيق فاستقلت ، ثم أخذت تغامر فى سبيل رأيك السياسى ، مدافعا عن الحق لا عن سعد ولا عن خصوم سعد ، مدافعا عن الحق حيث يكون الحق . حين كان الحق مع الذين يخاصمون سعدا ، لأنهم كانوا يريدون نظاما يعتمد على الشورى لا على الديماجوجيا .

كنت خصما لسعد ، وحين انحرف أصدقاؤك السياسيون عن سياستهم تلك ، وأرادوها دكتاتورية طاغية ، انحرفت عنهم وحاربتهم فى قوة أى قوة ، وفى عنف أى عنف ، وضحيت فى ذلك بمنصبك ، وأقبلت على مغامرة عرفت أولها ولم تعرف آخرها .

أتذكر خصومتك للدكتاتورية الثانية ، دكتاتورية صدقى رحمه الله ؟ ما أظن أن مرارة السجن قد ذهبت آثارها من فمك ! ففى تلك الأيام دفعتك خصومتك للسلطان الطاغى إلى السجن ، فأقمت فيه ما أقمت . كما دفعت لك زميلا آخر ـــ طالما خاصمته فى تلك الأيام ـــ إلى السجن أيضا ، فذاق من مرارته ما ذاق .

ذهبت إلى السجن وذهب « العقاد » الى السجن . وكلاكما ذاق السجن ، لأنه خاصم الطغيان وحاربه .

تلك أيام قد مضت أيها الزميل الكريم ، بخيرها وبشرها ، ولكنها تركت فى نفوسنا آثارا لا تمحى ، تركت فى قلوبنا ذكريات أقل ما تصور لنا هو أننا كنا شبابا نعرف كيف تنهض بالواجب ، وكيف نلقى فى سبيله ما نلقى من الشدائد، وكيف نحتمل فى سبيله ما نحتمل من الخطوب . وما أكثر المغامرات التى دفعت إليها فى حياتك تلك التى لم تعرف نظاما ولا استقرارا ولا طاعة ولا خضوعا ، وإنما مضيت على سجيتها أشبه شىء بالسيل الذى لم يتخذ لنفسه طريقا مرسومة ؛ كهذه الطرق التى تحفرها ؛ لأنه إنما يجرى حيث استطاع أن يجرى ، ويندفع فى غير وجه حيث استطاع أن يندفع .

كذلك كنت وأخشى أن تكون قد بقيت كما كنت ! وأخشى أن تكون الشيخوخة التى وصلت إليها لم تستطع أن تردك إلى شىء من الأناة والمهل والرشد الاجتماعى الذى يأخذ الناس بالحياة الهادئة الوادعة المطمئنة .

وقد اختارك زملاؤك لتكون عضوا معهم فى هذا المجمع . وثق بأنهم لم يختاروك عن عبث ، ولا عن مجرد الحب لك والرغبة فى زمالتك، وإنما اختاروك لأنهم يقدرونك .

حقا لست من العلماء الذين يملئون الدنيا بكتبهم، ويحصون مجلداتهم بالعشرات . فلا أكاد أعرف لك إلا شيئا قليلا من المجلدات ، وأحسبه كتابا واحدا ؛ ولكنك ملأت الدنيا ثقافة فى حياتك هذه المجاهـــدة المغامرة الخصبة : ملأتها ثقافة بمحاضراتك أيام الشباب ، وملأتها ثقافة بخصومتك السياسية التى اتصلت أعواما طوالا، وملأتها ثقافة بلمحاتك التى كنت تمس بها الحياة الاجتماعية وتمس بها حياة الناس اليومية.

وأؤكد لك أن هذا النحو من تثقيف الشباب فى غير نظام ــ ومتى أحببت النظام ــ ربما كان أخصب وأجدى وأبقى فى القلوب، من الدروس التى تلقى على الشبان فى داخل المـــدارس والجامعات .

إن الذين سيؤرخون الآداب فيما بعد ــ حين يصورون حياتنا الأدبية بين الثورتين ــ لن يستطيعوا أن ينسوا « توفيق دياب » .

لن يستطيعوا أن يهملوا اسمك بين الأسماء التى سجلت فى التاريخ الأدبى لنفسها ذكرا حسنا رائعا شائقا . فلك أسلوبك الحار العنيف المتدفق الذى يبق إلى القلوب ؛ والذى يخلب الآذان ، والذى ينسجم فيه اللفظ مع المعنى ، والذى يصور الموسيقى اللغوية والأدبية كأروع ما تكون الموسيقى ، وحسبك بهذا غالبا للشباب مستأثرا بعقولهم ، ثم حسبك بهذا مؤثرا فى القلوب ، مثقفا للعقول ، مهذبا للأخلاق ، ممرنا للألسنة ، ممرنا للآذان أيضا . علمت الشباب بأدبك كيف يحبون الأدب ، وعلمته بحدالك

ويخصامك كيف يصلب فى الحق ، ويجادل عنه، ويخاصم فيه . وعلمته بملاحظاتك الاجتماعية كيف يهتدى إلى الخير وينصرف عن الشر ، وعلمته قبل كل شىء كيف يحب الجمال الفنى الأدبى ، وكيف يؤثر أن يكون كلامه موسيقى وكلاما فى وقت واحد . كذلك كنت ، وكذلك عرف الذين عاصروك ، وكذلك ذكر الذين لم يعاصروك . ومن أجل هذا كله ، ومن أجل هذه النفس السمحة وهذا الخلق الكريم وهذه العشرة الحلوة والمخالطة المهذبة ، ومن أجل كل هذه الخصال اختارك زملاؤك لأن تكون بينهم فى المجمع اللغوى .

أنت تهدى إليهم من خصالك هذا كله ، أما هم فلا يهدون إليك إلا شقاء وكدا وعناء وجهدا وضيقا . فأؤكد لك أن عملنا فى المجمع ليس من هذه الأشياء التى يحسد الناس عليها ، ليس يسيرا ولا سهلا . وهو بنوع خاص ، ليس من هذه الأعمال التى تحسها كثرة الناس وترضى عنها الجماهير .

أتدرى أين أنت الآن ؟ أنت فى مجمع ذكر عنه منذ أسابيع أنه نكتة القرن العشرين ، يضحك الناس منه، ويرونه عبثا ثقيلا ، ويرونه غير نافع ولا شافع ولا مجد ، ويرونه إسرافا من الإسراف، تنفق عليه الدولة أموالا، ثم لا تجنى من وراء هذه الأموال التى تنفقها شيئا .

ألم تقرأ أن الكلمة التى ينتجها المجمع تكلف الدولة سبعة عشر جنيها ؟ فكيف أنت فى مجمع مسرف على نفسه ، وعلى حكومته كل هذا الإسراف . هذا هو الذى أهداه إليك زملاؤك حين اختاروك لتجلس بينهم . لم يهدوا إليك شيئا جميلا ، ولا يسيرا ولا حلوا ، وإنما دعوك إلى أن تتعرض معهم لهذه السخرية العذبة الحلوة ، التى تفيض بها الصحف بين حين وحين، ولهذه السخرية العذبة الحلوة التى تخطر أحيانا لبعض الوزراء فيسألون أنفسهم ، ويسألون زملاءهم ، وقد يسألون بعض المجمعيين : أتظن أن المجمع ينتج شيئا ؟ لا . إن المجمع لا ينتج شيئا . ولكنه ينشر معجما للقرآن ، وينشر معجما لأوساط المثقفين ، ويهيئ معجما للخاصة من الذين يعنون باللغة ، ويدرس مصطلحات العلوم الحديثة لينقلها إلى العربية ، ويحصى من هذا كله كلمات ما أظنها تعد بالألوف ، وعسى أن تتجاوز عشرات الألوف .

يصنع هذا كله :

وأى شىء من هذا كله يعنى الجماهير ؟ ! وأى شىء من هذا كله يعنى كثيرا من الوزراء إلا من عصم الله كهذا الذى أسرع بك إلينا منذ أيام .

ثق أيها الزميل الكريم والصديق العزيز أن إخوانك لم يهدوا إليك شيئا يؤثره كثير من الناس ، ولكنهم على ذلك قد أهدوا شيئا خطيرا جدا : أهدوا إليك هذا الحب لأداء الواجب ، حين يتاح للشيوخ أن يستريحوا من أداء الواجبات .

هذا أخص ما يمتاز به هـذا المجمع ، كثرة أعضائه من الشيوخ ، والذين لم يبلغوا منهم طور الراحة قد جاوزوا الشباب وإن كرهوا . كلهم شيوخ ، أيها الزميل ! وكلهم قد أدى واجبه كأحسن ما تؤدى الواجبات ، ولولا هذا ما دخلوا من هذا الباب .

كلهم قد أدى واجبه ، وآن له أن يطمع فى الراحة ؛ ولكن المزية الخاصة لهذا المجمع ولأمثاله من المجامع هى هذه : أنه يأخـذ الذين استحقوا الراحـة بأن يعملوا ويعملوا ، ويتكلفوا التعب والجهـد ، ويحتملوا الشقاء والعناء ؛ ليؤدوا حق الواجب ، وليقـولوا للشباب إن الواجب شىء يجب أن يصحب الإنسان منذ يعقل إلى أن يموت .

اختارك زمـلاؤك لتشارك فى إحياء اللغة والمحافظة عليها ، واختاروك بنوع خاص لتكون قدوة وأسوة للشباب فى العمل ، ما استطاع الانسان أن يعمل .

فدعنى أهنئك باختيار زملائك . و أذن لى فى أن أهنىء زمـلاءك بوصـولك إليهم ، وتقبـل من زمـلائك ومنى أخلص الحب وأصدق التحيات ؟

رد الأستاذ محمد توفيق دياب
على كلمة الدكتور طه حسين

أيها السادة الزملاء والأصدقاء :

ها أنتم أولاء قد سمعتم من صديقى الألمعى الذى تفضل باستقبالى : هذه الروائع من كلمات وإن كنت أغضى حياء من الثناء الجميل الذى أغدقه على شخصى ، فى سخاء يشبه الإسراف .

لكنه ثناء ـ على حلاوته ـ يمازجه غير قليل من الملح ، وقديما علمنا من بعض الطهاة أن لابد من شىء من الملح يضاف إلى بعض صنوف الحلوى كيما تشتهى وتستساغ .

وملح هذا الاستقبال الذى حظيت به من صديقى طه هو تعدد القرصات المهذبة التى كثيرا مايلوى بها لحوم أصدقائه ليا رفيقا كلما واتته الفرص .

لست أدرى على من تقع القرعة القادمة يوم أن ينتخب بعض زملائنا القادمين أعضاء فى هذا المجمع الموقر .

هذه « الوصفة » المعسولة المملوحة لابد لنا من الاستمتاع بها على يد الدكتور طه ، حتى لتقبل على كل سانحة من فرصها فى سرور وبهجة ، لأنها قرصات مستطرفة تقع من النفوس وقع الدغدغة والتجميش من الأبدان .

حضرات السادة المحترمين :

حين استقبلنى الدكتور طه فى منزله الحافل بالعلوم والآداب والفنون ، وكان ذلك تمهيدا لهذا الاستقبال الرسمى الذى فرغ منه مثابا مشكورا منذ دقيقة أو دقيقتين ، لم أكن أعلم ماخبأه لى القدر قبيل بلوغى داره العامرة .

لقد وجدت فيه ممتحنا شديدا على تلميذه .

ولم أكن سعدت من قبل بتلمذتى له . لكنى ـ والحق أقول ـ أحسست شيئا من التهيب قد داخلنى من هذا الأستاذ الذى تعود أن يكون فارسا ، ولم أتعود أن أكون فريسة .

لم يكن الامتحان الذى فرضه على اختبارا فى الأدب ولا فى اللغة ولا فى شىء يمت إلى ذلك بسبب . ولو أراد الدكتور أن ينزل بى هذه المحنة لاستطنى من حالق . ولو حاول ذلك معى لتمردت عليه ، كما تمردت على المألوف من مناهج الدراسة ، والمطروق من سبل الشهادات العالية وما فوق العالية ، كشأنى الذى وصفه الدكتور طه بلسانه من فوق هذا المنبر منذ لحظات قصار .

ولكنى لم أتمرد عليه ولا تنمرت له حين حصر أسئلته فى : « ما اسمك ؟ وأين ولدت ؟ وماذا درست منذ وعيت طريقك إلى الكتاب

حتى يومك هـذا ؟ »

وما كاد يتنبه إلى « يومى هذا » حتى انقض على سنى يكشف غطاءها عنوة بحكم سلطانه يوم يستقبلنى على ملإ من حضرات الأعضاء وحضرات الزائرين .

وروح الجماعة تزين للجماعة أن تسخر إذا سخر قائدها ، وأن تتواقر وتجد إذا جد وتواقر .

ومن عسى أن يكون قائد هذه الجماعة المثقفة فى هذا اليوم الرهيب سوى البطل الذى يعلو منبر الخطابة ، ليستقبل العضو الجديد فى حفلة رسمية من الغرباء والقرباء .

لكن وثبته على سنى يريد تقصيها والوقوف على عـدد شهورهـا وسنيها لم تجد عليه شـيئا يستطيل به علىّ ؛ لأنى حين صارحته بأنى ولدت سنة ثمان وثمانين وثمانمائة وألف ، أيقن أنه يصغرنى بعام واحد ؛ فلا يشمت إذن بشيخوختى ويفرح بشبابه ، اللهم إلا إذا فاخر بشباب أفكاره ومواهبه . فحينئذ نستسلم له ونسالمه ؛ لأن بطشات العقول والأفكار أفعل ألف مرة من بطشات السواعد والعضلات ، بل من بطشات الرماح والسيوف .

لم يمتحنى إذن — عافاه الله وأثابه — فى أدب ولا علم ولا فن وإنما امتحننى فى أسماء هـذه الأشيـاء دون أن يعرض لمدلولاتها وحقائقها . . ولو قـد فعل ، لتمردت عليه كما ذكرت آنفا ، ولصحت به فى غير وجل : أيها الدكتور طه حسين ، ودع عنك ألفاظ الصداقة أو الإخلاص أو الكلام المعسول مملوحا كان أو غير مملوح : ماذا تظن ؟ هل نسيت أن انتخابى قـد تم . وأن مرسوم تعيينى فى مجمع اللغة العربية قد صدر ؟ لماذا ترهقنى إذن بأسئلة محرجة معجزة ؟ لماذا تبخسنى ولائى للبواعث التى حملت زملاءك مـن العلماء والأدباء واللغويين على اختيارى عضوا معكم ، لى مالكم ، وعلى ماعليكم .

ولاسيما فى عهد ألغيت فيه الألقاب ، وحددت فيه الملكيات ، وتقاربت فيه النفوس والرءوس .

وسألت صديقى طه ، وقد سكنت ثورة هجومه ، وهدأت فورة دفاعى ؛ وذلك بفضل نغمات الموسيقى الصامتة التى تبعث الأمن والطمأنينة فى النفوس المتحفزة : موسيقى رشفات القهوة المتقنة مـن « فناجين » كبار مفحمة ، يعبق المكان بعبيرها المنتشر .

سألته : أليس التقليد المتبع إذا التفت المحافل بعضو جديد يوم استقباله أن يكون قد أعد دراسة مبتكرة فى باب من أبواب اللغة ، يتقدم فيها بمذهب جديد أو مقترح طريف أو توجيه مرشد إلى اصطلاح فى ناحية ما ، من هذا الموضوع المترامى الأطراف الذى يشغل المجمع ، ومن شأنه أن يشغل كل عربى يهمه لسان العرب ؟

قال صديقى طه فى نفور وانفعال : كلا . ليس من الكياسة أن يبدأ العضو الجديد بدرس يلقيه على الأعضاء يوم استقباله فى حفل عام .

إن المدارسات لا تكون فى بهو الاستقبال ولا فى ساعات الاستقبال

* * *

لذلك أقلعت أنا المتحدث إليكم منذ تلك الساعة عن التفكير فى بهلوانية لغوية أعرضها على حضراتكم فى هذا المقام .

لكنى مع ذلك محتاج إلى شىء أقوله فى هذه الدقائق « الطوال » الباقية لى . قبل أن يحين الوقت الذى أتخلى فيه عن مكانى لأستاذنا الكبير إبراهيم مصطفى : مستقبل زميلنا الأستاذ حامد عبد القادر .

نعم إن حاجتى لصارخة إلى شىء أقوله ، بل إلى أشياء كثيرة يجب أن أقولها قبل أن أغادر هذا المنبر .

يجب أن أعبر عن عميق شكرى لأعضاء المجمع الأحياء ، وعن جميل ذكرى لأعضائه الراحلين .

أشكر كل صديق شارك فى ترشيحى يوما من الأيام ، وأشكر كل زميل وثق بى فانتخبنى أو لم يثق بى فأعرض عنى . تلك هى الحرية المقدسة المشكورة فى كل حال .

وأشكر صديقى طه الذى « أوسعنى » مدحا حتى أخجلنى ولكنه خجل ليس يخلو من زهو وغبطة ... أشكر عسله وملحه ، وفكاهته وجده ، وأشكر عبقريته التى خلقت من صبى القرية — وكم فى القرى من صبية يعدون بالملايين — ومن طالب الأزهر — وكم فى الأزهر من طلاب يعدون بالألوف — أشكر هذه العبقرية التى سمت بطه حسين إلى الذروة العليا من الثقافة والأدب : أدب الشرق وأدب الغرب على السواء .

أيها السادة والأصدقاء :

ولكنى مدين إلى أستاذنا الجليل أحمد لطفى السيد بفضل لايحصى ولا يقدر .

أقول قولى هذا وأنا لم أتقرب إليه قط بزلفى طيلة الحياة ؛ حتى لقد يظن ظان أن بين الأستاذ الجليل وتلميذه المتواضع جفوة أو شبه جفوة ، لو أخذت الأمور بمظاهرها الخادعة .

كان الأستاذ الجليل أول من شجعنى على الكتابة الاجتماعية وأنا طالب بجامعة لندن . فنشر لى أربعة عشر مقالا افتتاحيا فى « الجريدة » بعنوان « المدنيتان » .

وكان الأستاذ الجليل هو الذى قدمنى بعد عودتى إلى مصر سنة ١٩١٦ إلى صديقه المرحوم سعد زغلول ، وكيل الجامعة الأهلية حينذاك ، مقترحا عليه افتتاح دراسة فى الخطابة والإلقاء فى الجامعة ، يتولاها « توفيق دياب » .

وقد اقتنع سعد — أمير الخطابة فى مصر — وافتتحت الدراسات ، ودامت عامين ، ثم شغلتنى مشاغل أخرى .

وكان الأستاذ الجليل هو الذى دعانى إلى المشاركة فى تحرير جريدة « السياسة » عند إنشائها ، فلما اعتذرت أصرّ . فنزلت على إرادته ، وقضيت زمنا غير قصير فى كفاح شريف نزيه .

وكان الأستاذ الجليل هو الذى رحب بى عاملا معه يوم كان مديرا للجامعة المصرية بين ١٩٢٥ / ١٩٢٨

وهأنذا اليوم تضمنى الأقدار إلى مجمع اللغة العربية الذى يرأسه أستاذنا الجليل .

إذن هذا رباط كلما تقادم عاد فتجدد ، وكلما انقطع — لا قدر الله — عاد فاتصل .

لكم تمنيت لو كان الرئيس بيننا اليوم ، فأبدى له بعض ما أكن له من التقدير والاحترام وعرفان الجميل . متعه الله بالصحة والسعادة والعمر المديد .

* * *

سادتى وأساتذتى :

جرت التقاليد فى مجمعكم الموقر أن يتكلم الخلف منا عن السلف مشيدا بمواهبه منوها بخدماته ومزاياه .

والسلف الذى أنا اليوم مدين له بذكر مآثره وجهوده — فى مجال اللغة والأدب — هو المرحوم الدكتور العلامة : فارس نمر .

ولد الدكتور نمر فى ٦ يناير سنة ١٨٥٥ وتوفى فى أواخر سنة ١٩٥١ . فهو لم يعش سوى سبع وتسعين عاما . وقد كان يرجو أن يتم فى هذه الحياة الدنيا مائة عام ، كما رجا هذه السن مستر « برنارد شو » ولم يبلغها هو الآخر .

كان الدكتور نمر أحد شركاء ثلاثة فى جريدة « المقطم » وأحد شريكين اثنين فى مجلة « المقتطف » .

ولما توفى الدكتور يعقوب صروف عاش المقتطف والمقطم بعده سنوات طوالا ؛ حتى إذا مات الدكتور نمر ، مات المقطم والمقتطف كلاهما بعده بشهر واحد .

وهكذا يقوم الدليل على أن كثيرا من كبار الأعمال يرتبط بها الرجال ارتباط حياة أو موت .

وليس يسعنا فى هذا المقام سوى التنويه الصادق بالجهود التى بذلها الزميلان العالمان صروف ونمر فى سبيل خدمة اللغة العربية فى مدى ستين عاما من الزمان أو تزيد .

لقد انقطع صروف للبحوث العلمية دراسة وترجمة وتعريبا . وإن لمجلة المقتطف لنصيبا موفورا من إشاعة العلوم الحديثة والفنون الجديدة ، منذ أن انتقلت من لبنان إلى مصر قبل عشرات السنين .

ولم تكن لغة المقطم وتعابيره وأساليبه الكتابية المرسلة أقل نصيبا فى رفع مستوى الكتابة من العامية المبتذلة إلى الفصحى السهلة التى لا ترتفع عن مدارك السواد .

وكانت المقطم هى الجريدة التى يشترك فيها أو يشتريها العمد والأعيان ، وكل راغب فى التمسح بجاه الإنجليز منذ أوائل الاحتلال إلى ثورة سنة ١٩١٩ .

ولقد كان العمدة الذى يقرأ ويكتب يجلس كل مساء فى حلقة من أسرته وإخوانه فى الدوار بعد العشاء أو قبله ، ثم يتلو مقالات المقطم وأخبارها المحلية وأسواقها التجارية .

وكانت هذه فى الواقع مدرسة ترتفع بمستوى

التفكير ومستوى التعبير ، وإن يكن الإطار كله يصطبغ بصبغة الاحتلال .

ونحن لانعرض هنا لسياسة المقطم أو لسياسة الدكتور نمر . وإنما همنا ينحصر فيما أفادته مصر من هذين العالمين الكبيرين : نمر وصروف ، ومن آثارهما العلمية والصحفية .

وليس ثمة شك فى أن المقطم والمقتطف قد أسهما فى نهضة اللغة العربية بنصيب عظيم . بنصيب تشكره الفصحى للراحل الكبير زميلنا الدكتور فارس نمر ، رحمه الله .

* * *

أيها الزملاء والأصدقاء :

هنا يجب أن أترك المنبر للزميلين الكريمين ، بعد أن استنفدت من الوقت برهة غير قصيرة .

ولكن كلمة نطق بها أخى « طه » فى سياق حديثه عن منهجى وسلوكى : كلمة تحتاج منى إلى تعليق وجيز . قال إننى متصوف أو أجنح إلى الصوفية ، أو كلمة فى هذا المعنى العظيم .

أيها الزملاء والأصدقاء :

إنى حقا ذقت حلاوة التصوف ، ونعمت بنعمته ، وسموت بسموه عن غرائز الأثرة وسلطان الشهوات .

نعم لقد تصوفت وأنا طالب فى إنجلترا ثلاث سنوات ، ثم أتممتها خمسا بعد أن عدت إلى الديار .

ليتنى استطعت الاحتفاظ بهذا السمو فى العواطف والمشاعر والأفكار بقية الحياة .

إذن لظللت قريبا من ربى ، يقبلنى فى كل ساعة وكل لحظة ، فى اليقظة وفى المنام .

لكنى ـ وا أسفاه ـ قد اجتاحتنى جوائح الدنيا ، وجرفتنى جوارف التيار .

على أن أمرا واحدا بقى لى ، أشكر الله على دوامه :

ذلك أننى ـ وقد انحدرت من الأفق الأعلى الذى كنت عرجت إليه أيام التصوف ـ لم أهبط قط بعد ذلك إلى الدرك القديم الذى كنت فيه أيام التيه والضلال .

أيها الزملاء والأصدقاء :

سلام عليكم وبركات ؟

الزميل الجديد الأستاذ حامد عبد القادر

للأستاذ إبراهيم مصطفى عضو المجمع

لو أن الخيار إليّ فى موقفى هذا لآثرت السكون والتريث والصمت، ولما تقدمت إلى هذا الموقف خطوة واحدة لأتكلم بين يديكم الآن ؛ لأنى تعودت إذا سمعت حديثا عذبا وبيانا قويا أن أبقى لأعيش فيه ساعة أطيل الاستمتاع به وأتروى فيه . ولكن هو الواجب ، واجب المجمع ، لا تردد فيه، بل أكاد أقول : حقا إننى مصروف عن القول لا أكاد أفكر فيما كنت أعددت لأقول . لأنى لا زلت أعيش فى الكلام الذى سمعته والبيان الذى استمتعت به ، كما تعودت أن أعيش حالما بعد سماع كل بيان جميل أو كل معنى رائع وأستأثر بإلقاء فيه حينا من الزمن .

هذا فيما يخصنى ، أما فيما يخصكم، فلعلكم أيضا كنتم تفضلون ما أفضل أن تنتهى الجلسة وأن نقدم الأستاذ فى جلسة أخرى . ولكن واجبات المجمع شديدة،ولا بد من اتباعها فيما يخصنا ، وإن واجبنا هو رعاية هذه اللغة الكريمة وخدمتها ، وهو واجب كأنه الهوى، وتكليف كأنه غرام ، ومشقة يزيدك المضى فيها إلفا لها ، واستمتاعا بها . هذا هو واجبنا الذى نمضى فيه محبين له ، متفانين فيه ، معرضين عن كل نقد إلا أن يكون نافعا موجها أو مرشداً .

أمامنا لسان عربى مبين ، ولغة واسعة مطواعة ، هيّ لها من قوة الحياة ما لم يهيأ لكثير من اللغات . أليس من آيات القوة أنها عمرت ما لم تعمره لغة أخرى غيرها ؟ وأنها إذا قيست الآن باللغات الحية وجدناها أمضى عمراً وأطول فى التاريخ القديم مدى ، وأنها لا تنت ! ولقد لقيت خطوبا وأحداثا وتغلبت عليها . ولقد دخلت على لغات فنسختها أو دخلت عليها لغات أخرى فما زحزحتها ! أليس ذلك دليلا على قوة الحياة ؟ وقوة الحياة فى اللغة أنها أخذت وأعطت ، وأنها أخذت من اللغات واستكثرت ، وأنها حين أخذت كانت تقدّ ما أخذت فى قدودها، وتزييه بزيها وتهضمه ،فإذا هو منها ، ويفنى ما أخذت ، وتبقى هى حية قوية بما أخذت .

نعم عاشرت اللغة العربية لغات كثيرة جداً، وبادلتها وغالبتها . وقد كان يظن أن هذه

---

(١) ألقيت هذه الكلمة فى الجلسة العلنية التى عقدها المجمع فى ٨ من مايو ١٩٥٤ لاستقبال الأستاذين : محمد توفيق دياب وحامد عبد القادر ، بمناسبة تعيينهما عضوين عاملين بالمجمع .

المعاشرة والمبادلة إنما كانت بعد ظهور الإسلام وبعد انسياح العرب فى الأقطار الأخرى ، ومن قبل ذلك كانت محصورة فى الصحراء تتردد بين وديانها وجبالها. ولكن القرآن شهد بغير هذا؛ فقد جاءت فيه ألفاظ كثيرة معربة سائغة منسجمة مع الأسلوب العربى المبين . وكانت هذه الألفاظ من كل الأمم المحيطة بالعرب من حبش ومصريين وروم وهند وفرس وغير ذلك. على أن هذه اللغة قد كسبت بمعاشرة اللغات واستمرت لها الغلبة والانتصار فى كل ظروفها ، وما نالت من خير وما لقيت من جهد وضير .

نعم . بعد الإسلام كثر هذا الاختلاط وازداد ؛ ولكن العربية بقيت قوية ، آخذة معطية ، مادة مستمدة ، وكان ذلك من أقوى علامات الحياة فى هذه اللغة، ولكن هذه الظاهرة فى العربية أوجبت على دارسى اللغة العربية ألا يقفوا عند متنها، ولا ينحصروا فى قواميسها؛ بل لا بد أن يعرفوا ما عاشرته من اللغات وبما تأثرت منها وبادلت .

وهذا المعنى قد فطن له طائفة من علماء النحو المتقدمين، فلم يقفوا عند درس اللغة العربية، بل توسعوا فيما حولهم ، لا لإحصاء المعرب والدخيل ، بل لمعرفة مزاج اللغة فى أخذ ما أخذت ، ونظامها فى هضم ما هضمت .

وأذكر عالما واحداً من المتقدمين الذين سبقوا إلى هذا النحو هو أبو حيان محمد بن يوسف الذى كان إمام النحو فى مصر فى القرن الثامن الهجرى ، وهو شارح كتب ابن مالك. نذكر من كتبه «زهر الملك فى نحو الترك» فهو عالم عربى كتب فى نحو اللغات الأخرى، ثم «نور الغبش فى لغة الحبش» و«منطق الخرس فى لسان الفرس» .

هذا إمام من الأئمة الذين سنوا لنا هذا الطريق فى دراسة العربية ، وأوجبوا علينا ألا نقف فى تصريفها واشتقاقها عند القواميس والكتب الخاصة بقواعدها ، بل يجب أن نتوسع ، لا لخدمة هذه اللغات ، ولكن خدمة للغتنا الكريمة ، بل للغتنا الحية التى جاهدت وانتفعت بكل ما بادلت وكل ما نقلت . هذا الأسلوب من الدرس المقارن فى معرفة اللغات أصبح الآن واجبا وأصبحت وسائله متيسرة أكثر مما كانت، وأصبحت نتائجه أوثق من ذى قبل .

وإذا كان العلماء قد قاموا بهذا الواجب ، أو بدءوه . وإذا كان نحاة العرب قد سبقوا إلى هذه الدراسة المقارنة والفهم الشامل :

إذا كان ذلك قد سبق إليه المتقدمون ، فقد أصبح علينا أوجب أن نأخذ به .

والمجمع يستكثر من هذه الدراسات ودارسيها ، ويستزيد من هذه الدراسات والإفادة منها .

ولهذا نبتهج إذ نستقبل اليوم عالما لغويا بارعا، لم يقف عليه عند التوسع فى العربية ، بل جمع إلى معرفتها الإحاطة بكثير من اللغات التى

معرفتها خدمة للغة، فقد درس الآرامية والعبرية وهما من اللغات السامية ، واللغة الفارسية وهى من اللغات الآرية وكلها عاشرت العربية وبادلتها وأكثرت من مبادلتها .

ولهذا نبتهج إذ نستقبل الزميل الكريم اللغوى النابه الأستاذ حامد عبد القادر .

حامد عبد القادر عالم لغوى ظهر تفوقه مذ كان صبيا. وقد رأينا اليوم عالما بارعا فى الأدب كان سبيله فى الدراسة: أن تمرد على النظم، وأبى الخضوع لها ، وسار كما تأمره موهبته وسليقته لا كما تحده القوانين .

وسنرى الآن عبقريا آخر سار فى الحدود الواجبة ،وساير النظام اللازم ؛ ولكن العبقرية كانت هى الغالبة ، وهى المنتهية إلى ما يجب أن تكون عليه العبقرية من الظهور والنفع والإفادة من العلم .

تقدم إلى المكتب كما يتقدم نظراؤه من أبناء القرية لحفظ القرآن وهو دون العاشرة ، ولم يكتف بذلك ،بل قرأ القراءات أيضا ، وروى رواية حفص وورش وهو صبى لا لينتفع بها كما ينتفع غيره ؛ ولكن لإرواء موهبته اللغوية المحيطة التى تريد أن تتشبع من كل ما يحيط بها.

ثم قدم إلى مصر فاتصل بدار العلوم وتفوق فيها . ولو أنه من الأعراض أن يقال إنه الأول فقد كان كذلك .

فاختير ليرسل إلى أوربة لتكميل الدراسة . وكان سبيل الذين يذهبون من دار العلوم أن يتعلموا ما يكمل لهم طريقة التعليم والبيداجوجيا، وعلم النفس ،فتعلم ما وجب عليه وما كلف به. ثم ظهر تفوقه هناك ، فاختير ليكون أستاذا للغة العربية فى مدرسة اللغات الشرقية فى جامعة لندن . هنا وجد الفرصة السانحة . فتقدم ودرس من اللغات ما وجد السبيل لدرسه ، فدرس العبرية والآرامية والفارسية . وهذه اللغات لا ترجع إلى أم واحدة أو أصل واحد ، بل ترجع إلى أصول متشعبة قد يكون الدرس الواحد منها مما يشغل ؛ ولكنه قد استطاع أن يدرس هذه اللغات على كثرتها .

عاد إلى مصر وظهرت آثاره القيمة فى كل ما درس فى أوربا . . . لا أذكر جميع مؤلفاته ، ولكنه كتب فى التربية وعلم النفس كتبا تعد مراجع وثيقة ، وأذكر ما كان من آثاره فى دراسات اللغات السامية والفارسية.

وقبل أن أذكر ذلك أقول إنه وصل الآن فى وظائفه إلى أن يكون مديراً عاما لشئون اللغة العربية فى وزارة المعارف ، وهو عبء عظيم وواجب ذو خطر ، ولا شك . وما أخطر أن يشعر العالم أنه مسئول عن التوجيه فى تعليم الناشء لغته القومية ! وإنه واجب يحمل المرء على التفكير ليلا ونهاراً ،وخاليا ومجتمعا !

فإذا علمنا أن سائر البلاد العربية تحتذى حذو مصر فى تعليم اللغة العربية ،علمنا أى عبء على كاهل الأستاذ حامد ،وهو إن شاء الله موفق فى كل

ما يضطلع به منها . يقول فى بحثه فى اللغات السامية إن اللغة العربية أم هذه اللغات وإنها من العربية بمنزلة اللهجات ، ويجادل بقوة فى أبحاثه من خالف هذا الرأى أو خرج عليه ، ويرى أن اللغة العربية متعددة الوسائل إلى البيان ، وأنها ثرية فى أدوات المعنى كأدوات النفى والتأكيد والتأنيث ، مما لا يتوفر فى لغات أخرى سامية أو غير سامية .

ويجنح إلى الرأى القائل بأن أصول الكلمات فى اللغة العربية ثنائية لا ثلاثية ؛ وهذا رأى عليه بيانه وعليه تدليله . ولكن المشهور الآن أنّ اللغة العربية ثلاثية فى أصول كلماتها .

وهو يلاحظ فى الأدب العربى أنه بكاء على مفارقة الديار واستفزاز للرجعى إليها .

واقرأ هذا البيان من قوله : مرت بنفسى خاطرة ترددت أن أقولها لأنها خاطرة وليست برأى :

إن بكاء الديار والوقوف بالأطلال العربية فن من فنون الشعر . وإذا أردنا معرفة أصله لانكاد أن نتبينه . وإذا أردنا أن نعرف السبب فلا نجد إلا فروضا لبعض الرواة ليست مؤيدة ؛ حتى امرؤ القيس وهو أسبق هؤلاء الشعراء كان يقول :

عوجا على الطلل المحيل لعلنا
نبكى الديار كما بكى ابن خزام

وسألهم عن ابن خزام فلا يعرفونه ولا يدلون على اسمه .

جال بخاطرى خاطر : ألا يمكن أن يكون هذا الفن التقليدى فى اللغة العربية يرجع أصله إلى لغة فيها بكاء الديار هو الحجر الأول والأساس الواضح فى تكوين أدبها .

هذه خاطرة إن أكن فيها مصيبا فقد أوحى إلىّ بها كلام الأستاذ حامد ، وإن أكن مخطئا فإنما يكون بسبب تعجلى فى الاستنتاج .

أما عمل الأستاذ فى اللغة الفارسية فإنه ــ كما يظهر من عمله ــ قد أغرم بالأدب الفارسى غراما عظيما وقد استغرق فيه وعاش معه طويلا .

وقد أقلقه ألا يرى الناس فى العربية ما فى الأدب الفارسى من معان جديدة مستحدثة ، فبذل جهده ليترجم كثيراً من هذا الأدب .

وله فى ذلك كتب منها كتاب يسمى (قطوف) .

وقد أحسن الاختيار ، وأحسن ـ على ما أرى ـ الترجمة .

ثم كتب فى اللغة العربية كتابه « قصة الأدب الفارسى » ، وهو كتاب واسع مفصل للأدب الفارسى والحياة الفارسية ، وأرى أننا الآن قد وجب علينا أن نتعرف إلى كل اللغات الشرقية وآدابها ، وأن نعرف الناس بها ، ونيسر لهم سبيل الاهتمام بها لننقلها إلى اللغة العربية .

فقد اشتد اتصالنا بالأمم الشرقية واشتد اتصالهم بنا ، وبدت حاجتنا إلى التعارف والتعاون ، وأصبح هذا التعاون من رسوم السياسة القومية ، ولا سبيل إليه إلا أن تعرف هذه الرسومات

وأن تعرف ما لها من آداب . فهو السبيل لربط النفوس والاتصال الصالح بهذه الأمم . فقد بادر الأستاذ لسد خلة كبيرة فى تاريخ اللغة العربية ، إذ فصل القول فى تاريخ اللغة الفارسية وآدابها ، وقد ضرب مثلا لغيره من العلماء الذين أعطوا حظا من اللغات الشرقية أن يسدوا لنا هذه الحاجة فى سائر اللغات الشرقية . أقول ذلك لأننا نحس الحاجة إلى ذلك .

فإذا سمعنا عن أمة شرقية ، وجب أن نعرف لغتها وتفكيرها ، وإلا كان اتصالنا على غير أساس وبغير نية ، ومن دون تفكير عميق .

منهج الأستاذ فى البحث منهج العالم المحقق الذى يعتمد على النصوص الأولى ، ثم يقدر لها قيمتها فيما يعتمد عليه منها .

قص تاريخ مزدك ، ثم قال بعدما بين هذه القصة : « وكل ما عرفناه عن هذا المذهب فقد نقله خصومه . فكان ذلك تقديرا حميداً لكل ما نقلنا من هذا المذهب » .

ثم بين سيرة « كسرى أنوشروان » الملك العادل ثم قال : « والذين لقبوه الملك العادل كانوا جميعا من رجال الدين ومؤرخوه ، وكان معروفا بسعة الصدر لهم وإسباغ العطاء عليهم . ذلك يفصل ما يروونه » .

أما أسلوبه فى الكتابة ، فمثل من الوضوح واتساق الحجة ، بلا تكلف ، وبعد عن الزينة والزخرف .

وقد عاب على الفارسية فيما كتب مبالغتها فى الحلى اللفظية ، وضاق بأن ينقل إلى العربية شيئا منها ، فكأنه تنزه عنها وأراد أن تكون كتابته آراء تتوالى وعقولا تتجلى ، وحقق لى قول الشاعر القديم :

وكنت متى أقرأ كتابك أعترف
بأن الحروف المائلات عقول

رد الأستاذ حامد عبد القادر

على كلمة الأستاذ إبراهيم مصطفى

أيها السادة :

باسم اللغة العربية أحييكم وأقدر جميلكم ، فقد كرمتموها بشهود هـذا الحفل العظيم ، وأعربتم عن تقديركم لها بحضوركم اليوم فى هذا المكان ، الذى هو دار ندوتها ، وفى الذروة من معاقلها .

نعم ، إن رقاع الدعوة إلى هذا الحفل تشعر أن الغرض منه هو استقبال عضوين جديدين من أعضاء مجمع اللغة العربية ، ولكن هـذا الغرض ينطوى على معان أسمى وأغراض أنبل .

فإن المجمع لم ينظم هـذا الحفل للاحتفاء بهذين العضوين لشخصيهما ، بل لأنهما جنديان جديدان جندهما أعضاء المجمع الأفاضل لخدمة اللغة العربية فى ميدان جديد شريف ، والإسهام معهم فى تحقيق أغراضهم النبيلة السامية .

وإنكم - أيها السادة - لم تكلفوا أنفسكم مشقة الحضور فى هذا المكان ، لتشاركوا أعضاء المجمع فى الاحتفاء بهذين العضوين فحسب ؛ بل إن لحضوركم غرضا أفضل من هذا الغرض الشخصى: ذلكم هو - كما أحسب - تشجيعكم هذين العضوين على المضى فى سبيل من سبقهما إلى خدمة اللغة العربية ، وعلى التعاون مع السادة أعضاء المجمع فى متابعة هذه الخدمة فى جد ونشاط وصفاء ووفاء .

ولقد تحدث الزميل الفاضل الأستاذ محمد توفيق دياب عن الراحل الكريم الأستاذ فارس نمر ، فأمتعنا بأسلوبه الرائع وبيانه الساحر .

أما السيد عيسى إسكندر المعلوف فقد كان من الرعيل الأول ، والسابقين الأولين الذين اشتركوا فى إرساء الحجر الأساسى لهذه المؤسسة اللغوية العلمية العظيمة ، وتنافسوا فى بنائها صادقين ، وجاهدوا فى سبيلها جادين مشكورين.

نشأ المعلوف منذ صباه محبا للعلم ، مجدا فى طلبه ، مكبا على البحث والدرس ، مولعا بنشر معارفه ، حريصا على أن ينفع مواطنيه بعلمه ، بتعليم النشء ، وتربيتهم على أسس قويمة سليمة ، ونشر المقالات الضافية فى أمهات الصحف والمجلات ، وتأليف الكتب القيمة فى الأدب والتاريخ واللغة وسائر العلوم والفنون .

ولقد سطر بيده الكريمة تاريخ حياته المجيدة ، فقال: إنه نشأ فى كفرعقاب : إحدى قرى لبنان ، وتلقى بمدرستها العلوم الابتدائية ، ثم تلقى العلوم الثانوية والعالية بإحدى مدارس البعثة الإنجليزية بلبنان .

وأسرة المعلوف من الأسر اللبنانية العريقة فى المجد ، المعروفة بنبوغها فى اللغة والأدب فى الشرق العربى وفى أمريكا ، فلا غرو أن يحذو الفتى الناشئ عيسى حذو السلف والخلف من أفراد أسرته الكريمة ، فيعكف منذ حداثته على التعليم ، ويشغف منذ صباه بإفادة مواطنيه بعمله وأدبه بشتى الوسائل .

مارس فن التدريس وهو فى الخامسة عشرة من عمره ، وأخذ وهو فى العشرين يحرر المقالات النافعة فى جريدة « لبنان » ، ولم يلبث بعد أن تجاوز الأربعين أن أنشأ مجلة شهرية باسم « الآثار » .

وفى سنة ١٩٢٠ من التاريخ الميلادى اشترك فى أعمال المجمع العلمى العربى بلبنان ، وألقى فى ردهته المحاضرات على الرجال والنساء .

وسرعان ما نبه شأنه واتسعت آفاق علمه وأدبه ، فاستدعى لإلقاء المحاضرات فى التاريخ والآداب والاجتماع فى دمشق وحلب وحمص ، وفى الكلية الشرقية بزحلة . وقد نشر مقالات ضافية فى نحو أربعين من المجلات التى تصدر بالعربية فى الشرق وفى المهاجر ، فى مقدمتها مجلات : المقتطف ، والهلال ، والشرق ، والمقتبس ، ومجلة مجمع دمشق العلمى ، ومجلة المجمع اللغوى المصرى .

ومما يدل على قيمة هذه المقالات أن كثيرا منها ترجم إلى التركية ، والروسية ، والفرنسية ، والإنجليزية ، والألمانية ، والرومانية ، والإيطالية .

وقد عنى هذا الأديب النابه بتأليف كتب ورسائل فى اللغة العربية وآدابها ، وفى التاريخ والتربية ، طبع بعضها ولم يطبع معظمها .

فمن مؤلفاته القيمة المطبوعة : دوانى القطوف ، وتاريخ زحلة ، وتاريخ الطب عند القدماء ، وتاريخ الطب عند العرب ، والأم والمدرسة ، ومعارضة « ياليل الصب متى غده » .

ومن أشهر مؤلفاته المخطوطة التى تقرب من أربعين مؤلفا : تاريخ الأسر الشرقية فى أربعة عشر مجلدا ، وشحذ القريحة فى الشعر والشاعر والفنون الشعرية ، وتحفة المكاتب للعرب والكاتب ، ومعجم الألفاظ العامية العربية ، والطرف الأدبية فى آداب اللغة العربية ، وتاريخ الزجل وفنونه ، وشعر الخلفاء والملوك والأمراء ، وتاريخ الموسيقى والغناء ، وتاريخ إبراهيم المصرى ، وتاريخ الدولة العثمانية ، والتذكرة المعلوفية فى عشرة مجلدات ، جمع فيها — على حد قوله — شوارد ونوادر ، معظمها لم يطرقه باحث .

وقد حرص المعلوف على اقتناء نفائس الكتب ، وجمع النادر من المخطوطات التى دونها مؤلفوها بأيديهم ، أو قرئت عليهم . وأنشأ منها خزانة تشتمل على نحو ألفى مخطوطة ، منها : الجزآن الرابع عشر والخامس عشر من تذكرة الصلاح بن أيبك ، وعدة دواوين شعرية

مفقودة ، كديوان ابن الجزار المصرى ، وديوان الخليل بن أحمد الفراهيدى ، وديوان أبى الأسود الدؤلى ، ومجموعة رسائل تتضمن رسائل أبى العلاء المعرى مما نشره مرغليوث الإنجليزى ، وشرح المعلقات لابن الأنبارى ، وتاريخ العصامى من شرفاء مكة ، وتاريخ القرمانى ، وتاريخ القطر المصرى لخليل الخورى وهو مكتوب بخط المؤلف ، ومجموعات فى الفقه والفلك والرياضة والموسيقى ، وفن الحيل الآلية كجر الأثقال ، وصنع الساعات وآلات الزمر .

ولم يكتف بجمع هذه الكتب ، بل إنه قرأها ، وضبط بعضها وكتب عليها تعليقات واستدراكات .

ولقد جعلته مواهبه الفطرية ، ومقدرته العلمية ، وشهرته الأدبية أهلا لأن يختار عن جدارة وكفاية عضوا فى المجامع العلمية والأدبية واللغوية ، فقد انتخب عضوا مؤسسا فى المجمع العلمى العربى بلبنان ، وعضواً فى مجمع التاريخ والأدب بالبرازيل ، وعضواً عاملا فى مجمع اللغة العربية فى مصر ، حاطها الله بعنايته ، وحفظها برعايته .

وسيرة هذا الأديب الفاضل — فى مجمعنا هذا الخالد بعون الله ومشيئته — سيرة حميدة حافلة بالمفاخر .

ذلك أنه فى سنة ١٣٥١ من التاريخ الهجرى قرر أولو الأمر فى مصر أن ينشئوا مجمعا للغة العربية يعهد إليه بالمحافظة على سلامتها ، وجعلها وافية بمطالب العلوم والفنون الحديثة ، ملائمة لحاجة الحياة فى هذا العصر ، وبالنظر فى قواعد اللغة العربية، ليتخير — إذا دعت الضرورة — من آراء أئمتها ما يوسع دائرة أقيستها ، حتى تكون أداة سهلة للتعبير عن المقاصد العلمية وغير العلمية. كما قرروا أن يكون أعضاء المجمع العاملون من الصفوة المختارة من العلماء البارزين المتفقهين فى اللغة العربية ، المحيطين بفنونها وأساليبها وآدابها فى مصر والأقطار الشقيقة وأوربة .

وفى صبيحة يوم الثلاثاء الموافق الثلاثين من يناير سنة ١٩٣٤ من التاريخ الميلادى عقد المجمع أولى جلساته . وكان أديبنا الفاضل ممن شهدوا هذه الجلسة من أعضاء المجمع الذين كانوا إذ ذاك عشرين عضوا .

وظل الأديب عيني يواظب على شهود الجلسات التالية ، ويشترك فى البحث والدرس والنقاش والجدال ، ويقدم المقترحات القيمة ، ويدلى بآرائه الناضجة فى شتى الموضوعات التى كانت تطرح على بساط البحث ، ويتناولها الأعضاء بالتمحيص والتحقيق .

واستمر يواصل جهوده الموفقة فى خدمة لغتنا العزيزة ، يحضر الجلسات فيسأل ويعترض ويقترح ويناقش ، ويدافع عن بعض الألفاظ دفاعا مجيداً ، ويعرض عن بعضها إعراضا شديدا .

وبدأ المجمع النظر فى الألفاظ التى تستعمل فى مطالب الحياة العامة ، أو فى العلوم والفنون

المختلفة ، لإقرار ما هو سائغ صحيح منها ، وإبعاد ما هو مستهجن غير صحيح ، ووضع مصطلحات جديدة مترجمة عن اللغات الأجنبية أو غير مترجمة . فحينئذ تجلت عبقرية سيادته اللغوية ، وتبين مدى إلمامه باللغة الفارسية ، وبالألفاظ المعربة عنها .

هذه — أيها السادة — صفحة خالدة من تاريخ عيسى اسكندر المعلوف ، ذلكم العالم المناضل الذى أحب الناس فأحبوه ، وبذل جهوداً صادقة فى نفعهم فأجلوه ، وقدرته الحكومات العربية حق قدره ، فحلت صدره بأوسمة الشرف والجدارة ؛ فقد حظى بنوط الجدارة من مجمعنا هذا الموقر ، وبوسام الاستحقاق من حكومة لبنان ، وبوسام الاستحقاق أيضا من حكومة دمشق .

ولما اعتلت صحته رأى المجمع إعفاءه من حضور جلساته ، فصدر فى الثالث من أبريل سنة ١٩٥٢ م مرسوم بمنح سيادته لقب عضو فخرى وإعفائه من أعمال الأعضاء العاملين .

يقول فى نهاية المذكرة التى كتبها بيده فى تاريخ حياته :

« ولا أزال أدوّن وأبحث ، بحسب ما تسمح به صحتى المنحرفة ، والماء الأزرق (لكتراكت) فى عينى ، خادما للغة وفروعها والآداب ، مع بحوث فى شعراء الإفرنج ، والشرق العربى إلى غير ذلك . فلعلى قمت ببعض الواجب علىّ من تأليف ونقل . والله يتولى عملى بعنايته العلوية ، ويمنه وكرمه » .

كلا ، أيها السيد الجليل . إنك لم تقم ببعض الواجب عليك فحسب ، بل إنك قمت بالواجب كله ، وأربيت عليه . فجزاك الله عن اللغة والأدب والعلم أحسن الجزاء

أما أنتم أيها السادة الفضلاء : رئيس المجمع فيلسوف العصر ، وكاتب سره الأمين ، وأعضاءه : أئمة اللغة وجهابذة العلم وأمراء البيان ؛ فإنى أرفع إليكم أطيب الشكر وأجزله على تشريفكم إياى باختيارى عضوا عاملا فى مجمعكم العظيم ، وعلى إقامة هذا الحفل الكريم جريا على عادتكم النبيلة ، وسنتكم المحمودة فى الاحتفاء بالجدد من أعضاء هذا المجمع الخالد الذكر . وإنها لمكرمة بالغة الأثر أذكرها فلا أنساها ، ومنة خالدة الذكر أشكرها ولا أنكرها

والحق أنى مهما أرتل من آيات الشكر على هذه المنة ، ومهما أنظم من قلائد الاعتراف بتلكم المكرمة فلست بمستطيع أن آتى بما يجب علىّ نحوكم :

إذ كلما انتهى من شكر مكرمة
وجدتها نعمة تفضى إلى نعم
وهمتى كلما همت لتشكركم
حارت ، ولم تلق ما ترضى من الكلم
ولو جرى قلمى يبغى مديحكم
جف المداد ولم ينصفكم قلمى

وقد عهدت بيانى قبلُ يسعفنى
ما باله اليوم فى ضعف وفى سقم ؟

وكان دأب لسانى أن يطاوعنى
فما له ظل فى صمت وفى صمم؟

بيد أن العجز عن ترتيل آيات الشكر باللسان ، والقصور فى التعبير عن معانى الثناء بأساليب البيان ، لايحمل معه الجحود ولايحسن النكران . لذا كان لزاما على أن ألتمس وسيلة أخرى لشكركم ، وأن أبحث عن طريق آخر للثناء عليكم . وقد تلمست الوسائل وبحثت عن الطرق فلم أجد وسيلة أفضل من الشكر بالجنان ، فإن الجنان يقدر على ما يعجز عنه اللسان . ولم أجد طريقا للاعتراف بفضلكم خيراً من طريق العمل والتعاون معكم ، فإن شكران النعمة بطيب الأعمال أبلغ أثراً من شكرانها بالأقوال ؛ إذ أن الأعمال الصالحة تبقى وتنفع ، أما الأقوال فتفنى وقد لا تنفع .

وإننا إلى عاملين يفعلون مايقولون ؛ أحوج منا إلى قوالين يقولون ولا يفعلون .

فهأنذا أتوجه بجنانى إلى العلى القدير أن يجزيكم عنى أحسن الجزاء ، وأعدكم وعداً صدقا ألا أدخر وسعا فى التعاون معكم على تحقيق أغراضكم السامية التى أنشئ هذا المجمع العظيم لتحقيقها .

ويجدر بى وأنا فى موقف المعترف بالجميل أن أشير إشارة عابرة — ولكنها عامرة — إلى فضل السيد الجليل مستقبلى العظيم الأستاذ إبراهيم مصطفى .

والحديث عن إبراهيم مصطفى يطول ، ولكنه مهما يطل فهو قصير . فأنتم تعرفونه، وتعرفون ما يتصف به من خلال حميدة ، وما له من مآثر مبتكرة سديدة . ويطيب لى بل يسعدنى ويشرفنى أن أذكر أنى قد عرفته عن خبرة واتصلت به عن كثب، فما رأيته إلا شهما نبيلا ، وعالما جليلا ، صادق الحس ، سريع الخاطر ، بعيد النظر ، جم التواضع ، غزير المعرفة ، محبا للاطلاع . إذا تحدث أمتع ، وإذا كتب أبدع ، وإذا ساجل أقنع ، وإذا تولى الإدارة أشفى على الغاية فى ابتكار الأساليب الصالحة ، ووضع النظم الناقمة . تولى عمادة دار العلوم الحديثة فأكمل نظمها الجامعية ، وكان ثانى اثنين فى إقامة صرحها الشامخ ، وبناء عزها الباذخ .

أما أولهما فهو أستاذنا الجليل السيد الفاضل زكى المهندس ، الذى كان أول عميد لدار العلوم فى عهدها الجامعى . أمدهما الله وأمد خلفهما الصالح ، وأمدكم جميعا بروح من عنده ، وأيدكم بعنايته وتوفيقه لتحيوا مجد العربية ، وتعيدوا سيرة أئمتها السابقين .

غير أنه يجدر بى — وقد درست بعض اللغات الأخرى من سامية وغير سامية — أن أقول ، وأنا جد واثق مما أقول : إنه إذا عدت اللغات الحية، وجب أن تكون العربية فى الصف الأول منها ؛ إن لم تكن فى مقدمتها .

فقد أدركت أن منزلتها من اللغات السامية الأخرى كمنزلة الأصل من فروعه ، ذلك لأنها تفضلها كما تفضل كثيرا من اللغات الحية بمزايا عظيمة :

منها : دقتها فى التعبير، فهى تفرق بين المذكر والمؤنث ، وبين المفرد والمثنى والجمع فى الأسماء والصفات والضمائر وأسماء الإشارة والأسماء الموصولة ، وتصريف الأفعال .

ومنها : كثرة صيغ الأفعال المزيدة فيها كثرة لا نظير لها فى غيرها من اللغات السامية الأخرى .

ومنها : كثرة المشتقات التى تشمل بجانب الماضى والمضارع والأمر المباشر وغير المباشر اسمى الفاعل والمفعول ، والصفة المشبهة ، وأسماء الآلة ، واسمى الزمان والمكان والمصدر الميمى .

ومنها : اشتمالها على جميع صيغ المفعول به المستعملة فى اللغات الساميـة الأخرى وهى صيغة فعيل كقتيل المستعملة فى الآرامية والسريانية ، وصيغة فعول كركوب المستعملة فى العربية ، وصيغة مفعل كمأكل المستعملة فى العربية وغيرهـا .

هـذا مع انفرادها بصيغة مفعول .

ويحسن لى فى هـذا المقام أن أذكر أن صيغة مفعول هذه هى فى أصل وضعها - كغيرها من المشتقات المبدوءة بالميم - صيغة مركبة من كلمتين : الأولى ما والثانية فعـول وهى صيغة المفعول به الكثيرة الاستعمال فى العبرية . فمأكول مثلا أصلها ما أكول : أى الذى أكل ، ومقتول أصلها من قتول أو نحوه ، أى الذى قتل . وعلى مر الزمن اتحدت الكلمتان وصارتا كلمة واحدة تطبيقا لقاعدة الاقتصاد فى النطق .

واندماج الكلمات بعضها فى بعض ظاهرة بارزة من الظواهر اللغوية ، ومن أمثلتها فى العربية ما ذكرت ، ومنها الفعل « ليس » فأصله « لايش » بالعبرية . وهما كلمتان لاتزالان تستعملان فى العبرية معناهما لا يوجد . وعلى مر الزمن صارتا كلمة واحدة .

وكذلك أيش فإن أصلها أى شىء . ونحن نقول فى لغتنا العامية : مافيش ، أى مافيه شىء .

ومن مميزات العربية كثرة أصولها أو موادها كما لا يخفى ، وصلاحيتها لأن يشتق منها مالا يحصى من المشتقات ، ولأن تنمى بزيادة مصطلحات جديدة ، كما أن لغتنا الحديثة قابلة للتنمية إما بإحياء ألفاظ قديمة ؛ كما قال المرحوم حفنى ناصف عن المرحوم الشيخ حمزة فتح الله :

وقال هات المسمى وهو مجتلب
وخذ من اللغة اسما غير مجلوب

وإما بالتعريب وهو فن أجاده القدماء وأخضعوه لقواعد معينة ، وأمكن به نقل كثير من الألفاظ الفارسية إلى العربية بعد صقلها بالصيقل العربى .

إذا كانت هـذه اللغة قد فسحت صدرها قديما ، ومدت يدها لتقبل الألفاظ المهاجرة إليها ، بعد أقلمتها - إذا صح هذا التعبير - فليس من المقبول ولا مـن المعقول أن نضيق ذرعا بالكلمات المهاجرات إلينا فى هذا العصر الذى تسع فيه نطاق الثقافات ، واختلطت فيه الأمم

وامتزجت العلوم والمعارف بعضها ببعض امتزاجا لا ينبغى معه أن تقف لغتنا المرنة الرحبة الصدر جامدة الأيدى .

إن اللغة كائن حى ، ينمو ويتطور كما تنمو مظاهر الحياة وتتطور ، فإذا شئتم أن تبقوا على حياة لغتنا ، وأن تعملوا على تنميتها وتنمية ثقافتنا القومية معها ، فأمامكم الأبواب مفتحة والسبل ممهدة . ومعاذ الله أن تقفوا بها فتضعف، وتضعف معها ثقافتنا .

لا تحجموا — أيها السادة — عن التعريب؛ فإن الكلمة بعد أن تعرب تصير ملكا للعربية ، وجزءا من كيانها ، كما هو متبع فى اللغات الحية الأخرى ، وكما حدث فى لغتنا إبان نهضتها .

ولكنى مع ذلك أنصح لكم ألا تسرفوا فى التعريب ، وألا تسارعوا إليه قبل الرجوع إلى تراثنا اللغوى القديم وعلومنا العربية الدفينة ؛ لتستخرجوا من كنوزها من المصطلحات ما يصح استعماله فى التعبير عن المعانى المستحدثة وإطلاقه على المسميات الجديدة .

وإنه لعمل ضخم يجب أن يفرغ له عدد كبير من الباحثين . ولعمرى إنه لمن أهم واجبات هذا المجمع ومن بين أعضائه الفضلاء من العلماء والأطباء ورجال اللغة وأمراء البيان وأئمة الفقه والقانون .

ليست أريد بهذا أن أنكر فضل مجمعنا العظيم ، ولا أن أغض من قيمة جهوده الموفقة التى بذلها فى هذه السبيل . بل أريد أن أقول إن مجال البحث لا يزال واسعا فسيحا ، وإن بحر اللغة لا يزال فياضا عميقا ، وإن أبواب البحث مفتحة ، وإن سبله ميسرة . فلنواصل ولوج هذه الأبواب ، ولنحاول اقتحام ما يتعرض لنا من صعاب .

أما أنا ، فإنى أجدد العهد ، مستلهما من الله الرشد ، وأضع جهودى المتواضعة بين أيديكم أبذلها فى التعاون على تحقيق أغراضكم فى حدود استطاعتى وما تسمح به ظروفى .

والسلام عليكم ورحمة الله ؟

الزميل الجديد الأستاذ توفيق الحكيم (١)

للأستاذ الدكتور طه حسين عضو المجمع

سيدى الزميل الجديد :

خطر لى أن أصطنع فى استقبالك مذهب الجاحظ حين عرض لأحمد بن عبد الوهاب فقال فى أول « التربيع والتدوير » : « إن أحمد بن عبد الوهاب كان مفرط القصر وكان يزعم مع ذلك أنه مفرط الطول . وكان مربعا . وكان يزعم مع ذلك أنه مدور . وكان كبير السن متقادم الميلاد . وكان يزعم مع ذلك أنه حديث السن والميلاد » . فما أظن أن مذهبا من المذاهب يليق باستقبالك إلا مذهب الجاحظ هذا ، لأنك خلقت من نفسك شخصية لا يمكن أن تؤدى إلا على هذا النحو . فأنت تتكلف من الخصال ما ليس فيك : أنت جواد وتزعم أنك بخيل . وأنت ماهر ماكر ، ومداور مناور ، وتزعم مع ذلك أنك ساذج لا تفرق بين ما ينفع وما يضر . وأنت صاحب جد فى حياتك وصاحب جد منتج ؛ وقد ألقيت فى روع الناس أنك لا تحسن إلا العبث والدعابة .

وكذلك صورت نفسك للناس بصورة ليس بينها وبين الحق من أمرك صلة ؛ فخير أسلوب يمكن أن يتبع فى تقديمك إلى المجمع هو هذا الأسلوب الذى قدم به الجاحظ خصمه أحمد ابن عبد الوهاب . ولكنك لست خصمى فلأصطنع شيئا من الجد الذى يليق بهذا المجمع ولأتحدث عنك كما تعودت أن أتحدث عمن سبقك من الزملاء إن وجدت إلى ذلك سبيلا .

فلست أدرى كيف يكون الحديث عنك من غير دعابة أو فكاهة . ولك علىّ دين ثقيل لا أدرى كيف أؤديه ، ولكنى أرجو ألا تبتهج ولا تفرح فليس هذا الدين مالا ولا هو شىء يشبه المال ، وإنما هو دين معنوى .

فقد شرفت بتقديمك إلى جمهور القراء حين ظهر أول كتاب لك . وأنا أشرف الآن بفضل الزملاء باستقبالك فى هذا المجمع . فهذا الشرف المضاعف هو هذا الدين الذى لا أدرى كيف أؤديه إليك . وما أرى إلا أنك قد أحسست شيئا عظيما من خيبة الأمل لأنه دين لا يجدى ولا يغنى ولا يفيد .

ولست أدرى : أأشكوك إلى المجمع أم أشكوك إلى نفسك . فالأصل أن الذين يقدمون الأعضاء الجدد إلى المجمع يستقصون من أمرهم

---

(١) ألقيت هذه الكلمة فى الجلسة العلنية التى عقدها المجمع فى ١٧ مايو ١٩٥٤ لاستقبال الأستاذ حسين توفيق الحكيم بمناسبة تعيينه عضوا عاملا فى المجمع .

ومن حياتهم ما يستطيعون . وقد حاولت أن أسلك معك السبيل التى سلكتها مع غيرك من الأعضاء ، فسألتك واعتمدت عليك فى أن تجيبنى بالحق ؛ بل أخذتك بالعنف وأخذتك بأن تقسم اليمين البرة ، التى لا حنث فيها ، على أن تقول الحق ، ولا شىء غير الحق ، كما تعودت أن تستنطق الشهود حين كنت عضوا فى النيابة العامة . وقد أقسمت اليمين أن تقول الحق ولاشىء غير الحق؛ ولكنك خرجت من يمينك هذه دون أن تقول شيئا . لم أستطع أن أعرف بالضبط السنة التى ولدت فيها ؛ فلم أكد ألقى عليك سؤالا عن مولدك حتى سألتنى : أتريد مولدى بالضبط أم تريد المولد الذى تسجله شهادة الميلاد . ولم أستطع أن أعرف منك تاريخ مولدك بالضبط . وإنما عرفت تاريخ شهادة الميلاد . وتاريخ شهادة الميلاد بالقياس إليك لا يدل على شىء .فالشىء الذى ليس فيه شك ؛ هو أنك قد تجاوزت سن الشباب سواء أردت ذلك أم لم ترد . وقد أصبحت شيخا . وقد حقت عليك كلمة أبى العلاء :

وما بعد مر الخمس عشرة من صبا
ولا بعد مر الأربعين صباء

فأنت قد جاوزت الأربعين وما أشك فى أنك قد تجاوزت الخمسين أيضا . وقد أعملت الحساب فعرفت منك أنك لم تدخل المدرسة الابتدائية إلا بعد أن جاوزت العاشرة . ومن اليسير أن نحسب المدة التى مكثتها فى المدرسة الابتدائية والثانوية وفى كلية الحقوق ، لنعرف أنك تخرجت فى كلية الحقوق حين بلغت الرابعة والعشرين أو الخامسة والعشرين، وكنت فى أوربا نحو سنة خمس وعشرين وتسعمائة أى منذ نحو ثلاثين عاما . وإذن فقد جاوزت الخمسين ياسيدى الصديق ،وليس لك أن تتخلص من هذا ولا أن تتنصل ، فلا تتصاب ولا تعد نفسك شابا ولا تعد نفسك قريبا من الشباب . واعترف بما ليس من الاعتراف به بد ، وهو : أنك قد نضجت كل النضج لتدخل هذا المجمع وتصبح شيخا من شيوخه .

والشىء الذى فيه شك هو أن بين زملائك من هو أحدث منك سنا ، وأقرب منك بالشباب عهدا . ولم أستطع أن أعرف منك : كيف كنت فى مدرستك الابتدائية والثانوية : أكنت تلميذا نابها ؟ أكنت مقبلا على العمل بارعا فيه ؟ أم كنت كصديقنا وزميلنا توفيق دياب كسلا تؤثر اللعب على الجد ؟ ولكن الشىء الذى ألمحه حين أقرأ بعض كتبك : أن حب الصبا وغرام الفتيان قد شغلك ساعة ما ، أو وقتا ما عن الدرس حتى أضعت أو كدت تضيع على نفسك سنة فى التعليم الثانوى ، ومع ذلك فقد نجحت فى الشهادة الثانوية نجاحا لا بأس به . لم تكن فى العشرة الأولى من الناجحين، ولكنك كنت فى المائة الأولى من الناجحين . ولم تكن طالبا نموذجيا فى كلية الحقوق . وأحسبك قد لجلجت حين أردت أن أعرف منك ترتيبك حين

تخرجت فى هذه الكلية ؛ فقد تخرجت كما استطعت أن تتخرج . والحمد لله على أنك ظفرت بهذه الإجازة ، فأمنت لوم والدك الكريم (رحمه الله) ولوم من كان أقسى من والدك الكريم (أطال الله بقاءه) .

والمدهش أنك بعد أن تخرجت فى كلية الحقوق، وأريد لك أن تكون محاميا لم تفلح فى المحاماة ولم تفلح فى المحاماة لأنك شغلت بشىء آخر غير المحاماة ؛ بشىء كنا أيام شبابنا نكره أن نشغل به غير جد الأمر ، وكنا نعبث حين يتاح لنا الفراغ الذى يجوز لنا فيه العبث. شغلت بتمثيل عكاشة وأصحابه عن المحاماة وجدها ، وعن الحياة وجدها أيضا ؛ حتى يئس منك أبوك أو كاد ييأس ، وحتى ذهب الناصحون إليه يغرونه ويريدونه على أن يبعدك عن مصر لتبعد عن هذه البيئة التى كانوا يظنون أنك لم تخلق لها وأنها لم تكن تصلح لك . وأبعدك أبوك إلى باريس لتتقن فيها دراسة القانون ولتعود فتسلك طريقك فى القضاء .

ولست أدرى أآسف أعمق الأسف أم أرضى أعمق الرضا : لأنك حين ذهبت إلى باريس لم تفلح فى القانون ، كما أنك لم تفلح فيه حين كنت طالبا فى كلية الحقوق .

تزعم أنك درست وأطلت الدرس ؛ ولكن الشىء المحقق هو أنك عدت من باريس دون أن تحمل منها شهادة الدكتوراه أو شيئا يشبه شهادة الدكتوراه فى القانون . لست أدرى : لماذا كلفت فى هذا العام أن أستقبل زميلين لا يحسن أن يعرضا على أنهما من المثل التى ينبغى أن تعرض للشباب أثناء طلب العلم ؟ !

عدت من باريس لا تحمل شهادة كما عاد توفيق دياب من « لندن » لا يحمل شهادة ؛ ذلك لأنك عنيت بالقانون — فيما تقول — وقد استشهدت ببعض زملائك هناك . وأريد أن أصدق الشهادة ، ولكنك عنيت بشىء آخر غير القانون أكثر مما عنيت بما أرسلك والدك من أجله : عنيت بتلك البيئات التى ترتفع عن بيئة التمثيل فى مصر فى تلك الأيام ، ولكنها بيئة تمثيل ، وبيئة فن ، وبيئة هذه الحياة الفرنسية اللاعبة الجادة ، الحلوة المرة ، المضيعة للوقت التى تفيد بتضييعها للوقت أكثر مما تضر .

كنت مختلفا إلى الحى اللاتينى . وكنت كثير التردد على البوريفاج ، وكنت تغشى دور التمثيل وملاعب الموسيقى وأشياء أخرى قد يحسن أن أمر بها مرا سريعا ، وعدت وقد نشأت لك شخصية جديدة ليست شخصية رجل القانون ولا شخصية صاحب الجد كما ألف الناس الجد فى بيئاتنا ، ولكنها شخصية الرجل الذى يحب الفن ويألفه ، والذى يطغى الفن على حياته طغيانا كاملا ، والذى يسخره الفن لخدمته ، ويسخره لخدمته حتى لا يترك منه شيئا يصلح لغير الفن . ومع ذلك فقد عدت ولم تجد بدا من أن تشتغل بالقانون .

فرض عليك أن تكون موظفا ، وفرض عليك أن تكون موظفا فى النيابة وأن تمارس عمل القانون . وقد صورت لنا فى غير كتاب من كتبك أنك كنت عضواً من أعضاء النيابة تؤدى واجبك كما كنت تؤديه طالبا فى مصر ، وكما كنت تؤديه طالبا فى باريس ، معرضا عنه فى أكثر الأحيان ، مهملا له على غير حب منك ولا رضا ، مشغولا بشىء آخر غير هذا الواجب.

وأخشى أن أقول : إن حياتك فى كل المناصب التى شغلتها منذ شغلت مناصب الحكومة إلى الآن كانت على هذا النحو : تؤدى واجبك فيها لتخلص من أداء هذا الواجب ولتعفى من التقصير ، ولكنك تمنحها أيسر ما عندك وتحتفظ بخير ما عندك لهذا الفن الذى استأثر بك منذ كنت طالبا ومنذ شغلك عكاشة وأصحاب عكاشة ، ثم رأيت نفسك تحاول الكتابة . وأحسبك حاولت الكتابة قبل أن تذهب إلى باريس . فقد عرفت أنك قدمت رواية إلى المسرح : مسرح عكاشة ولكنها لم تمثل . أخفقت فى أول رواية قدمتها إلى المسرح . ولكن هذا الإخفاق لم يشغلك عن التمثيل ولا عن الفن ، بل زادك إقبالا عليهما وإمعانا فى العناية بهما . وأظن أنك شغلت بالفن ، وبالكتابة والإنتاج حين كنت طالبا لاعبا فى باريس ؛ فبين آثارك التى قرأناها ورضينا عنها وأعجبنا بها أشياء ما أشك فى أنها قد كتبت هناك .

رجعت من باريس إذن لا تحمل شهادة ، ولكنك تحمل شيئا خيرا من الشهادة : تحمل بعض هذه الكتب التى عرفناها فيما بعد . ثم عرفك الناس حين ظهر كتابك الأول : « أهل الكهف » ، وهى هذه القصة التمثيلية الرائعة التى عرضت فيها ـ لأول مرة فى التمثيل العربى ـ لمشكلة خطيرة ولمسألة جديرة بالعناية وهى مسألة الزمن . والزمن بالقياس إلى وطنك هذا : مصر .

لأول مرة إذن ظهر بيننا كاتب يحاول أن ينشىء فن التمثيل باللغة العربية لا يترجم ولا يقلد فيه ولا يتكلف فيه ما كان يتكلف الكتاب الذين كانوا يحاولون أن ينتجوا فى التمثيل ، وإنما يقبل عليه كأنما خلق له منذ خلق ، ويتصرف فيه كأنما خلق ليتصرف فيه ، وليكون كاتبا ممثلا لا يظهر التكلف فى حرف من حروف هذه القصة ، ولا يظهر التعب ولا الجد ولا الكد فى شىء من هذه القصة ، وإنما هى تأتى يسيرة سهلة كأنما أوحيت إليك أو كأنما ألهمتها إلهاما ، وكأنما أرغمت على أن تكتب فكتبت ، وكأنما كنت أداة تتلقى وتنتج وتؤدى ما تتلقى فتحسن الأداء ، وكأن معنى هذا كله أنك كنت كاتبا ممثلا مطبوعا . فقصة أهل الكهف هذه التى نقرؤها فلا نكاد نمضى فيها حتى يأخذنا الإعجاب ، ثم يأخذنا الإمتاع ، ثم نشغل بها عن غيرها ، ثم نشغل بها عن كاتبها ، ثم لا نشغل بها عن غير كاتبها بشىء غيرها حتى نفرغ منها .

هذه القصة التمثيلية إن دلت على شىء إنما تدل على أن الله إنما خلقك لتدخل فن التمثيل فى اللغة العربية ، ولتجعله فنا أصيلا من

فنونها الأدبية بعد أن كان فنا طارئا عليها ؛ ينقل إليها من الغرب ، أو يتكلف فيها تكلفا قوامه محاكاة التمثيل الغربى . فأنت قد أصلت هذا الفن فى اللغة العربية ، وليس هذا بالشىء القليل . وحسبك بهذا عاذرا لك من كل أغلاطك فى المدارس ، وفى كليات الحقوق : فى مصر ، وفى باريس .

كنت طالبا لاعبا ولكنك على غير إرادة منك كنت كاتبا جادا . لم تكن تتكلف هذا الجد وإنما كنت تدفع إليه دفعا بقوة ما أظنك عرفتها أو حققتها إلى الآن . وأخص ما تمتاز به أيها الزميل الجديد هو أنك فى فنك مسير لا مخير ؛ فأنت لا تختار وإنما يُختار لك . وأنت لا تريد وإنما تُراد على ما تكتب . فأنت إذن متأثر بهذه القوة الخفية ، لا تكاد توجه إرادتك إلى شىء حتى يهيأ لك وتنتج فيه إلا أن يكون هذا الشىء مناقضا لطبيعتك ، فأنت حينئذ تصرف عنه صرفا .

ولم تكد قصة أهل الكهف تظهرك للقراء فى مصر حتى أظهرتك قصة أخرى ليست تمثيلية ولكنها أقرب إلى التمثيل منها للقصص ، وهى: عودة الروح . فأنت فى عودة الروح تقص ، ولكنك تمثل على رغمك . فالأشخاص أحيانا يذهبون ويجيئون وحياتهم ماثلة أمامنا لا نتحدث عنها ، أولا ينبغى أن نتحدث عنها بالفعل الماضى ، وإنما ينبغى أن نتحدث عنها بالفعل المضارع كما ينبغى أن نتحدث عن أشخاص القصة ، وأن يعملوا وأن يقولوا وأن يأتوا ما يأتون من الحركات التى يأتيها أشخاص القصة التمثيلية . فأنت فى قصصك تمثل أكثر منك قاصا . وكانت عودة الروح هذه هى التى حببتك إلى عامة القراء ، وإلى عامة القراء الذين يقربون من الشعب ، ولا يسمون إلى أرستقراطية التفكير ؛ ذلك لأنك اقتطعت هذه القصة من حياة الشعب اقتطاعا . صورت الحياة المصرية كما يحياها الأوساط من المصريين ، وكما يحياها الفقراء من المصريين أيضا ، وصورت هذه الحياة المصرية فى كثير من الحب لها والشغف بها والفناء فيها ؛ كأنما كنت تصور نفسك ؛ لأن كل المصريين الذين صورتهم فى هذه القصة يتصلون بك من قريب أو بعيد . ولست فى حقيقة الأمر إلا واحدا من هؤلاء الأشخاص الذين تراهم يتحركون ويذهبون ويجيئون فى قصتك بكثرة ، ثم صورت الحياة المصرية فى وقت دقيق من أوقاتهم حين كان المصريون ثائرين بالإنجليز ، طامحين إلى الحرية ، عامدين إلى أخذ استقلالهم من هؤلاء الإنجليز عنوة ، ماضين فى جهادهم لا يلوون على شىء ولا يصدهم عن هذا شىء . يرسلون أبناءهم إلى حيث يطالبون بهذا الاستقلال خارج مصر . منهم من يتكلف فى ذلك ما فرض عليه من سجن ونفى ، ومنهم من ينضم إلى هؤلاء الذين سجنوا ونفوا ليصاحبهم فى الجهاد ، وليحتمل معهم أثقاله .

والشعب المصرى من وراء هؤلاء جاد كادح . وليس لهذا الشعب قوة ولا ثبات إلا إيمانه بنفسه ، وثقته بمستقبله ، وإكباره لماضيه ؛ دون أن يحقق هذا الماضى ودون أن يذكره ذكرا صريحا ، كما أنه لا يعرف هذا المستقبل ، ولكنه يؤمن بماض مجيد ، ويطمح فى مستقبل مجيد ، يجهله ولا يكاد يحققه .

وكذلك كان الشعب المصرى حين صورته فى هذه القصة . وأشهد لقد صورته فأحسنت تصويره . ولم تصوره فتحسن تصويره فحسب ، ولكنك أضفت إلى هذا التصوير شيئا من ذات نفسك ، وهذا الشىء هو الذى عرّفت به طبيعة الشعب المصرى فأحسنت تعريفه ، فهو شعب يجهل نفسه ، وهو على جهله بنفسه يقدر نفسه ، يعرفها فى ضميره الخفى ، ويجهلها فى ضميره الشعورى ، كما يقول أستاذنا الرئيس لطفى السيد .

وقد صورت هـــذا فى الشعب المصرى تصويرا حسنا ... حين أنطقت بهذا — فى قصصك — ذلك الأثرى . الخ الذى كان يجادل فيه ذلك المفتش الإنجليزى : شعب غنى قوى ولكنه يجهل ثروته ويجهل قوته ويجهل نفسه . والأحداث هى التى تكشف عن حقائقه وتبين له دخيلة أمره ، فإذا هى دخيلة خصبة تبعث الأمل وتحيى الرجاء .

ومضيت بعد ذلك فيما مضيت فيه من كتبك التى لا أجد وسيلة إلى إحصائها ، وأكاد أعتقد أنك أسرفت فى الإنتاج ، وأكاد أعتقد أنك لو استأنيت بنفسك شيئا وأنتجت فى شىء من الإبطاء لأعطيتنا آيات تشبه فى جودتها وقوتها وبراعتها واستعدادها للبقاء هذين الأثرين : أهل الكهف ، وعودة الروح .

وأنا أعرف أنك فى عـــودة الروح قد اصطنعت لغتين : اصطنعت لغة عربية فصيحة تحتاج مع ذلك إلى شىء من التحرير ، واصطنعت لغة عامية طبيعية ، ولكنك آثرت نفسك باللغة الفصحى ، فكنت إذا تكلمت أنت أفصحت ، وإذا أردت أشخاصك على أن يتكلموا أرسلتهم على سجيتهم فتكلموا فى لغتهم العامية كلاما عذبا حلوا . وكنت فى هذا ملائما لما ينبغى أن يكون عليه الحال حين يريد الكاتب أن يصور حقائق الشعب كما يجب أن تكون ، أو كما هى فى واقع الأمر .

ولك فى هذا خصوم ، كما أن لك فى هذا زملاء . فزميلنا تيمور قد صنع نفس هذا الصنيع فى أول أمره ثم أعرض عنه إلى اللغة الفصحى الخالصة ، ثم عاد إلى اللغتين جميعا ، واصطنع الفصحى لنفسه ، واصطنع العامية للشعب .

وما أرى أنك قد بعدت عن هذا المذهب . فأنت تصطنع العامية أحيانا أخرى ، وليس عليك من هذا بأس ، فما ينبغى أن يطالب الفنان بأكثر مما يستطيع أن يعطى ، فالحرية هى الأصل الأول للفن . أنت حر تكتب بالعامية أو بالعربية الفصحى ، وإنما يبدأ تقييد حريتك منذ هذا اليوم : أى منذ دخلت هذه الدار التى يكتب

أصحابها لا باللغة العربية الفصحى فحسب، بل باللغة العربية الفصحى التى تقرها المعاجم وتقرها التقاليد القديمة العتيقة . فأنت منذ الآن مكلف أن تكتب بلغة عربية تلائم بجمعيتك هذه الجديدة .

فدعنى بعد هذا أتحدث قليلا عن هذه الصورة التى أعطيتها من نفسك للناس ، فهى صورة لاسبيل إلى إهمالها . والشىء الذى لاشك فيه أن أحدا من الناس لا يسمع اسمك حتى يبتسم . على حين أنه يسمع أسماء كثير من زملائك فى هذا المجمع فلا يبتسم ، وربما عبس ، وربما لعبت بنفسه عواطف مختلفة منها الحلو ومنها المر ، ومنها الرضا ومنها السخط ، ومنها الحب ومنها الخوف . أما أنت فلا يذكر اسمك إلا ابتسم ذاكره وسامعه معا .

لماذا ؟ لأنك قد أعطيت من نفسك للناس صورة توشك أن تكون صورة مضحكة ؛ فلا يتحدث الناس عنك إلا بأنك بخيل أشد البخل ، متهالك على المال أكثر مما كان يتهالك عليه بخلاء الجاحظ . لا يذكر بالقياس إليك سهل بن هرون ولا الكندى ولا ابن المؤمل ولا غيرهؤلاء من الذين تحدث عنهم الجاحظ فى بخلهم وحرصهم وتهالكهم على المال . ولا تكاد تجلس فى مجلس إلا أخذ أصحابك يجادلونك فى البخل والجود وفى الحرص والإنفاق وفى السماحة والكزازة . والطريف أنك ترضى عن هذا كل الرضا ، وتحاول أن تضيف إلى نفسك من هذا البخل ألوانا وأشكالا ما أعرف أن شيئا منها يتصل بنفسك حقا . ثم أنت قد أعطيت من نفسك صورة أخرى : صورة الرجل الذى لايحسن أن يتصرف فى الحياة ، لايستطيع أن يسافر إلا أن يعينه على السفر معين ، ولا يستطيع أن يركب السيارة دون أن يحسب لركوب السيارة ألف حساب . فأنت تشفق من كل شىء وتخاف من أيسر الأشياء ، وتسرع إلى الصياح دون أن تحتاج إلى أن تصيح ، كأن الدنيا من حولك كلها نذر وأهوال تريد أن تنوشك من كل قطر من أقطارها وتريد أن تلتهمك التهاما . وأنت تذكر كيف أتعبتنا وأتعبت غيرنا من أصدقائك ، وكيف أتعبت نفسك حين أردت على أن تأخذ الطائرة لتذهب إلى « سالسبورج » لتشهد تمثيل إحدى قصصك هناك . كنت مشفقا من الطائرة قبل أن تركب الطائرة بأكثر من شهر . وكنا ننفق من الجهد ما ننفق لنشجعك ونسليك ونغريك ونعطيك من قوة تعينك على أن تركب هذه الطائرة ، ونؤكد لك أنك ستركب الطائرة وتعود منها سالما .

والمدهش أنك ركبت الطائرة وذهبت وعدت كما يذهب غيرك ويعود ، ولم تكن فى حقيقة الأمر خائفا ولا ملتاعا ، وإنما تكلفت هذا كله تكلفا ، ولست أنسى حين دعوتك للقائى على قمة جبل من جبال فرنسا فكتبت إلى مرتاعا ملتاعا مشفقا من الهول كل الهول ، وفى الوقت نفسه صورت نفسك صورة الإنسان الذى لا يستطيع أن يترك باريس لأنه يحب لونا من ألوان الطعام لا يكاد يوجد فى غير باريس . أشفقت أن تصعد فى الجبل . وكرهت أن تنفق أياما لا تذوق فيها هذا اللون من ألوان الطعام .

أنت ـ إذن ـ طائفة من المتناقضات . أنت فى فنك حين تعالج هذا الفن الطبيعى غير متكلف ولا متعمل كأنما تغرف من بحر كما كان يقول القدماء . ولكنك فى حياتك الاجتماعية مصنوع متكلف متعمل ، بعيد كل البعد عن الحياة الطبيعية المألوفة . والناس يعرفون منك صورة ليس بينها وبين شخصك الحقيقى صلة من قريب أو بعيد .

جعلت نفسك موضوعا للتندر . فالناس إذا ذكروك تندروا وضحكوا وسخروا أحيانا . والناس يرونك فيتندرون بك ، وأنت ترضى عن كل هذا .

لماذا ؟ أتريد أن أدلك على السبب فى هذا التكلف ؟

إنما هو أنك تحب أن يعرفك الناس وتحب أن يحبوك . والناس يعرفونك بالبخل أكثر مما يعرفونك بالكرم ، لأن الكرم شىء طبيعى لا تكلف فيه . والناس يتحدثون عن البخلاء وقلما يتحدثون عن الكرماء . والناس يتحدثون عن أصحاب السذاجة وقلما يتحدثون عن أصحاب التفكير العميق . والناس يتحدثون عن الخائفين المشفقين الذين يعدون أنفسهم جبناء أكثر مما يتحدثون عن الذين لا يخافون ولا يشفقون ولا يخترعون لأنفسهم ألوان الخوف والإشفاق . أنت إذن تحب أن يعرفك الناس ، وتحب أن يألفك الناس ، وتحب أن تكون رجلا شعبيا . وقد نجحت فى ذلك حتى كدت تخلق لنفسك شخصية تشبه شخصية « جحا » . واست أدرى ما الذى ستصنعه فى هذا المجمع ولا ما الذى سيصنع بك هذا المجمع .

فنحن هنا ـــ يا صديقى العزيز ـــ أصحاب جد ، وجد مر ، ويكفى أن تنظر إلى الرئيس لتعلم أنه ليس من التكلف ولا من التصنع ولا من محاولة رضا الشعب ولا محاولة سخط الشعب ، ولا من أية محاولة من هذه المحاولات التى ألفتها وأحببتها فى شىء ، إنما هو كما تعرفه : الرجل السمح السهل : سمح النفس سهل الخلق . يريد أن تكون الأشياء كما ينبغى أن تكون ، وكما يريد أرسطاليس أن تكون . وهو يسوس المجمع هذه السياسة : صارم فى سماحة ، حازم فى رفق ولين . وثق بأنك حين تشاركنا فى جلساتنا لن تستطيع أن تلفت الناس إلى بعض نزواتك هذه التى تعجب الناس منك .

فكن ـ يا صديقى ـ ما شئت أن تكون خارج المجمع ، ولكن إذا دخلت المجمع فانظر إلى أقرب أعضائه : إلى الصرامة والحزم والجد المر . انظر إلى العقاد مثلا ، وسر سيرته ، وإلا فلن تفلح فى هذا المجمع بحال من الأحوال .

أرسل نفسك ـــ إذن ـــ على سجيتها فى هذا المجمع ، ودع التكلف عندبابه . فإذا انتهت الجلسة وعدت إلى الشارع فارتد التكلف حين تركب السيارة لتلقى من تعودوا منك هذا التكلف . أما هنا فكن كالرئيس : صراحة وسماحة ، ويسراً وانبساطا مع ذلك .

لست أدرى أيهما شرف بصاحبه .

أما أنت فلا شك فى أنك شرفت بدخولك هذا المجمع ، فلا أقل من أن تعترف لنا بأننا نشرف من ينضم إلينا ، ولا أدل على ذلك من أنا وقفناك ببابنا أكثر من عامين تنتظر أن نأذن لك ، فلم نأذن لك إلا بعد أن أطلت الانتظار ، ذلك بأن الوصول إلينا ليس يسيرا ولا سهلا .

وأما نحن فقد شرفنا بانضمامك إلينا . ليس فى هذا شك بحال من الأحوال . فأنت كاتب نابه ما فى ذلك شك . لا يجادل فى ذلك إلا الحمق . وأنت تعرف أن هذا المجمع لا صلة بينه وبين الحمق . أنت كاتب نابه ؛ بل أنت كاتب نابغة ما فى ذلك شك . قد اجتمع الناس على إكبار فنك ، واجتمع على إكبار فنك النقاد منهم وغير النقاد . واجتمع على إكبار فنك الذين يلتمسون الظهر فى الساعة الرابعة عشرة من النقاد مثلى ، والذين يقبلون كل ما يلقى إليهم من عامة القراء .

فأنت — إذن — كاتب نابغة ما فى ذلك شك . وقد اجتمع العرب كلهم على إكبار فنك والإعجاب به ، وقد تجاوزت — لا أقول حدود وطنك — بل حدود العالم العربى . فأنت تقرأ فى الإنجليزية وتقرأ فى الفرنسية وتقرأ فى الألمانية والإيطالية أيضا ، وأظنك ستقرأ عما قليل فى اليونانية .

ومن كان بهذه المنزلة فهو خليق أن يشرف المجمع حين ينضم إليه . وثق بأننا لم نخترك لنرضيك أنت ، وإنما اخترناك لنرضى باختيارك أنفسنا . فكن فى هذا المجمع كما ينبغى أن تكون عضوا كريما بين زملاء كرام ، متعاونا على أغراض المجمع هذه التى تعرفها . ومن يدرى لعلك لم تقرأ نظام المجمع إلى الآن . والشىء الذى ليس فيه شك هو أن هذا شىء يجب أن تصنعه متى عدت إلى دارك بعد هذه الجلسة ، إن شاء الله .

أما بعد : فإنى أهنئك بانضمامك إلينا ، وأهنئ المجمع بانضمامك إليه ، وأرجو إن شاء الله أن تكون عضوا مجمعيا مثاليا موفقا فى كل ما تعمل وفى كل ما تقول ؟

رد الأستاذ توفيق الحكيم

أيها السادة :

لقد وضعتمونى مشكورين ، فى كرسى مخيف ، كرسى رجل من أشجع رجال مصر فى التاريخ المعاصر هو : عبد العزيز فهمى .

والشجاعة عند عبد العزيز فهمى وسيلة لغاية أسمى وأشرف : هى الحرية .

والحرية عند عبد العزيز فهمى هى حياته . هى لحمه ودمه . هى فكره وروحه . هى عمله وجهاده .

طلب الحرية للوطن . وطلب الحرية للفكر ، وطلب الحرية للغة .

فلاعجب إذن إذا اعتقدت أن هذا الكرسى الذى اقترن باسم عبد العزيز فهمى هو : « رمز للحرية » .

هذا الاعتقاد عندى دعمه وقواه الرجل التالى الذى آل إليه هذا الكرسى .

الرجل التالى هو : واصف غالى .

واصف غالى هو أيضا ـ ولعلها مصادفة عجيبة ـ رجل من رجال الحرية : جاهد هو الآخر فى سبيل حرية بلاده ، وحافظ ما استطاع على حرية حياته .

ولئن كان قد ترك هذا الكرسى ـ والمجمع أحوج ما يكون إلى علمه وأدبه ـ فقد فعل ذلك مدفوعا بدافع تلك الحرية التى أحبها والتى أرادت له أن يقيم حيث يشاء ، وأن يخدم وطنه وأدب وطنه على النحو الذى يحسنه ويتفق مع مواهبه .

ولقد خدم فعلا الأدب العربى خدمة جليلة ؛ فهو ـ بفضل تمكنه من اللغة الفرنسية : أسلوبا وصياغة ـ قد استطاع أن يبصر الغربيين بما فى الأدب العربى من روائع لم يفطنوا إليها ولم يقدروها قدرها . فنشر فى باريس منذ سنة ١٩١٣ كتبا ثلاثة ، هى : « تقاليد الفتوة عند العرب » ، و « حديقة الأزهار » ، و « الدر المنثور » .

كتب نقل بها إلى الغرب فضائل الفكر العربى نقلا مبينا مشرقا ، جعل ناقد فرنسا المشهور فى ذلك الوقت : « جول ليمتر » يقول وهو شديد الإعجاب : إن الشعر العربى فى مجال الإحساس والشعور أنقى شعر عرفه الإنسان . فالأمانة والصدق . والشهامة . والصداقة . واحترام المرأة . وقرى الضيف . والكرم . وعظمة النفس . والبطولة . والفخر ... هى بعض ما يتغنى به ويعبر عنه هذا الشعر العربى !

وهو ما يسمو به فوق شعر الأمم الأخرى فحولة ونبلا .

هذا بعض ما فعل واصف غالى لرفع شأن الأدب العربى فى بلاد الغرب، وهو لم يزل هناك يواصل خدماته الجليلة فى هذا السبيل ، تاركا كرسى عبد العزيز فهمى يئول إلى شخصى الضعيف بميراثه الضخم من فاخر الأعمال ، وما انطوى عليه من معنى ورمز .

ترك لى هذا الكرسى وترك لى معه مهمة الكلام عن صاحبه الأول العظيم . وهى مهمة خلتها عسيرة فى أول الأمر . وإذا هى فى الواقع لن تكلفنى جهداً . فتاريخ عبد العزيز فهمى معروف لكم جميعا ؛ لأنه تاريخ مصر فى نصف القرن الأخير . تاريخ مصر فى جهادها السياسى وجهادها الفكرى . أما جهاده السياسى فموقف عبد العزيز فهمى منه خالد على الدهر . فهو أحد الثلاثة الذين ثاروا لحرية البلد ، وصاحوا فى وجه المستعمر تلك الصيحة التى أيقظت الوطن .

أما تاريخ مصر الفكرى ، فموقف عبد العزيز فهمى منه باق أيضا لا ينسى . فهو الذى ثار لحرية الفكر فى قضية على عبد الرازق وكتابه عن الإسلام وأصول الحكم . . . وقضية طه حسين وكتابه عن الشعر الجاهلى .

كل هذا معروف لكم أيها السادة ، ولا محل هنا للإطناب فيما هو منقوش فى الأذهان .

حسبنا أن نستخلص من هذا التاريخ صفة من صفات عبد العزيز فهمى . هى : روح الثورة من أجل الحرية : حرية الوطن ، وحرية الفكر ...

إلى أن جاء هنا فى هذا المجمع .

فاستيقظت فيه مرة أخرى روح الثورة من أجل حرية جديدة رآها فى حاجة إلى صيحته وشجاعته : تلك هى حرية اللغة .

لم يكد عبد العزيز فهمى يستقر فى هذا الكرسى بمجمعكم حتى لاحظ أن اللغة العربية الجليلة فى قدمها ، العريقة فى بيانها ، تكاد تعتل وتمرض ، لطول ما أغلقت عليها النوافذ ، خوفا على صحتها ومحافظة على سلامتها . رآها كالعجوز المقيدة فى خلاخيلها ودمالجها ، الحبيسة فى حجرة من التقديس ، لا يدخلها هواء الحياة ولا شمس العصر ، خشية عليها من تقلب الجو ...

فنهض فارس الحرية وأراد أن يمد يده إلى النوافذ يفتحها للنسائم التجديد . وهو يقول فى ذلك : « إن اللغة كائن كالكائنات الحية : ينمو ويهرم ويموت ، مخلفا ذرية لغوية متشعبة الأفراد هى أيضا فى تطور مستمر . ولم يستطع قوم للآن أن يغالبوا هذه الظاهرة الشعبية ... فإن التطور يكبح شراسة من غالبه ... »

إيمان عبد العزيز فهمى بالتطور أى بالتجدد وهو شيخ فى الثمانين ، يدل على أنه كان رجلا عظيما حقا . وعندما أقول إنه عظيم ، لا أعنى

المعنى المبتذل ؛ بل أعنى المعنى العميق للكلمة . ذلك أن من صفات العظمة شباب التفكير ، أى الإحساس بالتجدد . أى مغالبة الزمن . أى سبق العصر ...

كل العظماء بلا استثناء كانوا مجددين ، أى سابقين لعصورهم مغالبين للزمن والهرم والجمود ؛ لأن عظمة الإنسان هى فى الانتصار على الزمن. وخير مظهر للانتصار على الزمن هو شباب الفكر الدائم ، وتطور التفكير المستمر .

والزمن يحارب الإنسان فى هذا الميدان بقانون صارم ، هو قانون : العادة . فالناس والأمم والشعوب تستنيم إلى حكم العادة ، فيتمكن منها الزمن ويصيبها بالهرم .. إلى أن يسعفها عظيم بإكسير التجديد .

ولنمض فى الإصغاء إلى عبد العزيز فهمى وهو يتكلم عن التجديد والتطور فى اللغة . قال : « إن رسم الكتابة العربية هو الكارثة الحائقة بنا فى لغتنا . إنه رسم لا يتيسر معه قراءتها قراءة مسترسلة مضبوطة حتى لخير المتعلمين ... إذن فأول واجب على أهل اللغة العربية هو أن يبحثوا عن الطريقة التى تيسر لهم كتابة هذه اللغة على وجه لا تحتمل فيه الكلمة إلا صورة واحدة من صور الأداء ... خطر بفكر أحد زملائنا أن يعالج المسألة لا من جهة الرسم بل من جهة الإعراب . وذلك بحذف حركاته وتسكين أواخر الكلمات . وكان من السهل إجابته إلى فكرته ؛ لأن موضوعها ليس غريبا عن أصل العربية ، بل هو يوافق بعض لهجاتها القديمة .

وقد قرئت آية : « ويضيقُ صدرى ولا ينطلق لسانى » مثلا من القرآن الشريف هكذا : « ويضيقْ صدرى ولا ينطلقْ لسانى » بتسكين القاف فى الكلمتين ... هذا العلاج إذا كان يزيل صعوبة الإعراب ، فإنه لا يفيد شيئا فى الصعوبة الآتية من تغير الصيغ والصور للكلمة الواحدة ... »

وهكذا يمضى عبد العزيز فهمى فى بيان صعوبات اللغة العربية ، تلك الصعوبات التى تعرقل انتشارها وتؤدى إلى ضمورها وموتها .

وما من شبهة فى أن هذه الصعوبات قد أدركها القدماء أنفسهم .

كان عبد الملك بن مروان يقول :

« شيبنى ارتقاء المنابر وتوقع اللحن » .

وكانوا يقولون : « سكن تسلم » .

وقال ابن الأثير فى كتابه « المثل السائر » : « إن الإعراب ليس شرطاً للبلاغة ، وليس اللحن قادحا فى حسن الكلام » ...

بل ذهب أبعد من ذلك بقوله : « إن الجهل بالنحو لا يقدح فى بلاغة ولا فصاحة » .

وقال مثل ذلك ابن خلدون الذى رأى أن الوقف لا يجافى البلاغة ...

كل هذا يدل على أن القدماء كالمحدثين قد لمسوا هذه الصعوبات ، وحاولوا أن يعالجوها ببعض التجوز والإباحة والتيسير فى النطق والكلام .

ولكن عبد العزيز فهمى أراد أن يحل العقدة بسيف شجاعته ، فكان أن قدم اقتراحه المشهور بترك الحروف العربية ، واتخاذ الحروف اللاتينية .

وأذكر أنى وافقته فى ذلك الوقت ، وكتبت إليه مهنئا ومؤيدا ، فتفضل ـ رحمه الله ـ وزارنى فى مسكنى . وكان يومئذ حجرة فى نزل بأعلى عمارة من تسع طبقات . فأشفقت على شيخوخته من الصعود ، وأسرعت إليه ـ وهو فى سيارته ـ أعفيه من تكاليف الزيارة .

وركبنا معا ، وجعل يشرح لى نظريته وأنا أوافق وأؤيد ، وأحسن وأزين . لا يخطر على بالى أنى سأكون يوما فى موضعه من هـذا الكرسى لأواجه الناس علنا بهذا الرأى .

يجب أن أعترف ، والاعتراف بالحق فضيلة : عبد العزيز فهمى كان ـ حقا ـ سيفا من سيوف الشجاعة . أما أنا فكل ماعندى عصا : عصا تتكلم أحيانا ولكنها لا تقطع أبدا . .

لن أتعرض إذن للعقدة ، وخصوصا العقدة العسيرة الحل ، وهى حروف الكتابة العربية واللاتينية .

ولكنى إذا لزم الأمر ، فأنا مستعد للدفاع عن الرأى الآخر الأبسط : وهو الخاص بتبسيط قواعد النحو واللغة إلى الحد الذى يجعل القارئ أو المتكلم يستطيع القراءة والكلام بغير تعثر ولا تفكر . فإن مصيبة اللغة حقا هى أنها نوع من الشطرنج ... يحتاج فيه المتكلم أو القارئ إلى تأمل فى موضع الكلمة من العبارة قبل النطق من حيث النحو والإعراب ؛ كما يتأمل لاعب الشطرنج موضع الحجارة قبل التحرك ...

ونحن الآن ـ ولا شك ـ فى عصر السرعة : عصر لا يحتمل هذا اللون من اللعب النحوى فى مواقف الجد والحرج . . لا بد إذن من أن نصنع شيئا لتبسيط القواعد إذا أردنا للفصحى حياة باقية متطورة .

إن تطور اللغة العربية ـ كما قال عبد العزيز فهمى ـ آت لا ريب فيه .

وهذا التطور سيبدأ ـ فى رأيى ـ بداية لطيفة مقبولة . وهى أن الفصحى ستحتفظ بخير ما فيها ، وستستعير من العامية خير ما فيها . وخير ما فى العامية هو هذا التمشى مع منطق اللغات الحية فى البلاد المتحضرة : منطق الاقتصاد والبساطة والسرعة ، أى منطق العصر ؛ فتلغى من الفصحى الحركات فى أواخر الكلمات ، ويكتفى بالوقف والتسكين فى أكثر الأحوال .

وأظن هذا الأمر لا يحتاج فى إقراره إلى معركة عنيفة .

أعاهدك إذن يا عبد العزيز فهمى : أنى سأدافع على الأقل عن هذا الرأى بشجاعة : شجاعة مستمدة من هذا الكرسى الذى طالما اهتز بثورتك ،

سأحاول أنا أيضا أن أثور .

فاحتملونى أيها السادة إذا فعلت ، وإن كنت أشك فى أنى سأفعل . وأظن أنكم أنتم أيضا تشكون فى هـذا الوعيد وتقولون : « أبشر بطول سلامة يا مجمع .. ! »

والسلام عليكم ورحمة الله ؟